بريطانيا والصراع العربي/العربي
خلال الربع الأول من القرن العشرين
«إبن سعود والشريف حسين بن علي»

الدكتور: إبراهيم علي عبدالعال

البحوث

بريطانيا والصراع العربي/العربي خلال الربع الأول من القرن العشرين «ابن سعود والشريف حسين بن علي»

د. إبراهيم علي عبدالعال*

ملخص الدراسة:

هذا البحث هو دراسة مقارنة بين موقف زعيمين من الزعماء العرب (ابن سعود والشريف حسين بن علي) من الوجود والنفوذ البريطاني في المنطقة العربية وخاصة شبه الجزيرة العربية منذ بداية القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى تلك الفترة الحاسمة في التاريخ العربي بوجه عام.

ويدور البحث حول ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول: علاقة ابن سعود ببريطانيا قبيل وأبان الحرب العالمية الأولى:- ويتناول هذا المحور علاقة ابن سعود بالسلطات البريطانية منذ استعادة ملك أسرته في نجد في ظل التغييرات الدولية منذ بداية القرن العشرين والتي كان أهمها توتر العلاقات بين بريطانيا وتركيا بسبب تقارب الأخيرة مع ألمانيا، وكذلك التغيرات المحلية في جزيرة العرب والتي كان أهمها وجود قوى مناوئة لابن سعود كأمير حائل وأمير الكويت. وقد انتهت هذه الفترة بعقد معاهدة دارين عام ١٩١٥ بين السلطات البريطانية وابن سعود في أعقاب اندلاع الحرب العالمية الأولى. ويهتم هذا المحور بالمكاسب التي حصل عليها ابن سعود من هذه المعاهدة.

المحور الثاني: علاقة الشريف حسين ببريطانيا قبيل وأبان الحرب العالمية الأولى: ويدور هذا المحور حول التقارب بين بريطانيا والشريف حسين في ظل التحركات التركية في أعقاب اندلاع الحرب العالمية الأولى. وقد انتهت المراسلات بين الجانبين بانضمام الحسين إلى جانب بريطانيا وقيام الثورة العربية ضد الأتراك. هذا المحور يركز على المكاسب التي حصل عليها الشريف حسين نتيجة لذلك، ومقارنتها بما حصل عليه ابن سعود، ويعدُّها بداية للصراع بين الجانبين.

المحور الثالث: الدور البريطاني في الصراع بين ابن سعود والحسين بعد الحرب:-

(*) قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طنطا، جمهورية مصر العربية.

ويتناول هذا المحور تفجر الصراع بين الحسين بن علي وابن سعود بعد الحرب، والازدواجية في مركز الحسين ما بين موقفه في التعبير عن مطالب العرب القومية وبين كونه حاكماً للأماكن المقدسة الإسلامية، ويركز هذا المحور على التغيير الذي حدث في السياسة البريطانية تجاه حليفي بريطانيا بسبب تمسك الشريف حسين بحقوق العرب وسعيه لمطالبة بريطانيا بتنفيذ تعهداتها. وقد أدى موقف الحسين الرافض لأية مساومة مع بريطانيا إلى اتجاه جديد للسياسة البريطانية هدفت من ورائه إلى تصفية حساباتها مع أهم حليف لها في جزيرة العرب باتخاذ إجراءات لإضعافه وغض الطرف عن تحركات ابن سعود، وكان لذلك الموقف الجديد نتائجه المهمة، حيث تمكن ابن سعود من القضاء على الحسين وملكه مؤدياً بذلك خدمة جليلة لبريطانيا، التي كافأته على ذلك بمكافئات ما كان يحصل عليها لو لا هذه الخدمة العظيمة لسياسة المستعمر البريطاني في بلاد العرب.

ويشتمل البحث أيضاً على مقدمة توضح أهدافه وخاتمة توضح أهم نتائجه.

١ – المقدمة:

جاء القرن العشرون والشرق العربي يموج بتيارات مختلفة كان أهمها اليقظة العربية لبلاد المشرق في ظل الحكم العثماني، والتي كانت البداية لمطالبة العرب باستقلالهم وحريتهم ووحدتهم.

وشهدت بداية هذا القرن أيضاً ذروة التنافس الاستعماري الغربي نتيجة لتضارب مصالح الدول الاستعمارية مما دفع هذه الدول إلى عقد تحالفات فيما بينها. فقد تقاربت فرنسا من بريطانيا لمواجهة الخطر الألماني، وتقاربت الدولة العثمانية من ألمانيا لمواجهة تزايد النفوذ الإنجليزي والفرنسي في بلادها وممتلكاتها، وتوسطت فرنسا للتقارب بين روسيا وبريطانيا، ومهدت هذه التحالفات مع وجود المصالح الاستعمارية المتضاربة إلى نشوب الحرب العالمية الأولى.

وفيما يتعلق بشبه الجزيرة العربية – التي هي موضوع البحث – فقد توافق مجيء القرن العشرين مع تغييرات مهمة بها، وظهور زعامات جديدة لها طموحات وأهداف متباينة. فقد شهدت جزيرة العرب – مع مطلع هذا القرن – ظهور خمس زعامات عربية: هي آل الرشيد في حائل عاصمة إقليم شمر، وآل سعود بنجد، وآل يحيى حميد الدين باليمن، والأدارسة في عسير، والهاشميون بالحجاز.

ويركز البحث اهتمامه على الزعامتين العربيتين اللتين مثلتا أهم الأدوار في تاريخ الصراع العربي/العربي في مراحل ثلاث خلال الربع الأول من القرن العشرين، وهي فترة ما قبل الحرب الأولى وفترة الحرب نفسها وفترة ما بعد الحرب، وهاتان الزعامتان هما: الزعامة السعودية متمثلة في شخص عبدالعزيز بن سعود التي تمثل الطموح في عمله على استرداد أملاك أسرته، والزعامة الهاشمية متمثلة في شخص الشريف حسين بن علي التي تمثل الطموح القومي والعربي والإسلامي. ولا يغفل البحث الدور الذي لعبته الزعامات الثلاث الأخرى والتي قامت بدور الكومبارس على مسرح الأحداث في الجزيرة العربية، وأدى وجودها وتحالفها مع إحدى الزعامتين الرئيسيتين في الجزيرة العربية إلى تأجج الصراع بينهما في مراحل كثيرة.

ويستعرض البحث سعي القوى الاستعمارية وتسابقها في جذب العرب إلى جانبهم منتهزة فرصة اختلاف أهداف الزعامات العربية وطموحاتها، ونجحت بريطانيا بصفة خاصة عن طريق سياستها الاستعمارية في إعطاء الوعود وعقد التحالفات ومنح المعونات لهذه الزعامات لخدمة مصالحها الخاصة، وكان على بريطانيا أن تفاضل في امتيازاتها ووعودها ومنحها بين الزعامات العربية حسب قدرة كل منها على خدمة المصالح البريطانية، وحسب ظروف كل مرحلة من المراحل الثلاث السابقة.

وكانت أهم مرحلة من مراحل الصراع ين السعوديين والهاشميين هي مرحلة ما بعد الحرب، فبعد أن تقلص ظل السيادة العثمانية عن العالم العربي ظهرت وبشكل واضح الفروق بين الكيانات العربية داخل الجزيرة العربية من جهة، والأطماع الاستعمارية الغربية من جهة ثانية. وظهر لبريطانيا أنه إذا كانت قد انتهت سيادة العثمانيين التي شكلت لها عائقاً لتنفيذ السياسة الاستعمارية البريطانية في المشرق العربي قبل الحرب، فإن فترة ما بعد الحرب ستشهد عائقاً أخطر تمثل في تمسك الشريف حسين بن علي بالوعود البريطانية في تحقيق استقلال ووحدة العرب.

ومن هنا كان اهتمام البحث بصفة خاصة بالدور البريطاني في الصراع السعودي / الهاشمي، والتحولات التي أحدثتها بريطانيا في سياستها بين الطرفين المتصارعين وأثر هذه التحولات في تأجج الصراع بين هاتين الزعامتين العربيتين.

ويهتم البحث أيضاً بما استفادته بريطانيا من قصر نظر الزعماء العرب خلال هذه الفترة، وعدم إمكانية هؤلاء الزعماء بسبب اختلاف طموحاتهم وأهدافهم في اتخاذ نظام عربي موحد بسبب الإختلافات بين هذه الكيانات العربية من حيث التكوين الاجتماعي والنضج السياسي، مما ساعد بريطانيا على سهولة إحداث التحولات في سياستها بين هذه الزعامات العربية لخدمة أهدافها ومصالحها.

وأخيراً يركز البحث على موقف الزعامة السعودية بصفة خاصة من الدور البريطاني المشين الذي استخدمها كأداة للقضاء على الزعامة الأخرى. وينظر البحث نظرة مختلفة عن معظم الكتابات التي بهرتها نجاحات ابن سعود دون أن تلتفت إلى الثمن الذي دفعه العرب جميعاً بسبب طموحاته لاسترداد ملك أسرته محملة إياه جزءاً كبيراً من المسئولية في الخسارة العربية التي لم يستطع العرب تعويضها إلى اليوم.

٢ – بريطانيا وابن سعود قبيل وإبان الحرب العالمية الأولى:

حرصت بريطانيا منذ تدخلها في منطقة الخليج لحماية مصالحها في المنطقة، وطرق تجارتها إلى الهند على عدم التورط في البر (mainland) أي في اراضي شرقي الجزيرة العربية. لذلك تصدت السلطات البريطانية – عن طريق سفنها الحربية – للسفن العربية التي هاجمت السفن التجارية البريطانية العاملة في الخليج، ووصفتها بممارسة أعمال القرصنة والسلب والنهب. وعندما ازدادت الهجمات العربية ضد السفن البريطانية خاصة بعد ظهور الدعوة الوهابية واعتناق قبائل القواسم في الشارقة ورأس الخيمة لها بدافع الجهاد الديني، اضطرت بريطانيا إلى إرسال حملات عسكرية إلى منطقة الخليج لتأديب هذه القبائل ومنع هذه الاعتداءات. واستمر إرسال الحملات العسكرية البريطانية لذلك الغرض منذ ١٨٠٥ حتى ١٨١٩*. وكانت سلطات الهند البريطانية حريصة على تزويد قادة هذه

(*) حملات عسكرية أرسلتها بريطانيا ضد القواسم في الشارقة ورأس الخيمة لوقف اعتداءاتهم على سفنها في الخليج والتي وصفتها بالقرصنة وأهمها حملة ١٨١٩ التي دمرت الميناءين وما بهما من سفن.

الحملات العسكرية بتعليمات بتجنب النزول بالبر والدخول في حرب برية، واقتصار العمليات العسكرية على البحر والمنطقة الساحلية فقط التي تشن منها الهجمات على السفن البريطانية العاملة في الخليج(١).

غير أن هذا الحرص لم يمنع بريطانيا من مراقبة ما يجري بالقرب من منطقة ساحل شرقي شبه الجزيرة العربية التي لبريطانيا مصالح مهمة بها، واتخاذ إجراءات معينة لحماية هذه المصالح، ولكن بشرط ألا يؤدي ذلك إلى تورطها في حرب برية. فبعد نهاية فترة حكم فيصل بن تركي* (١٨٤٢-١٨٦٨) في نجد، حدث خلاف بين ولديه سعود وعبدالله، ولجأ الأخير إلى السلطات التركية في العراق لمساعدته ضد أخيه، ووجدت سلطات الهند البريطانية فرصتها في التدخل لصالح سعود الذي كان من وجهة نظر السلطات البريطانية - أقل وهابية من أخيه(٢). ووصلت التعليمات للمسئولين البريطانيين في البحرين، وإلى الشيخ عيسى بن علي حاكم الجزيرة بتقديم المساعدة لسعود ضد عبدالله(٣).

وأرسل مدحت باشا** والي بغداد التركي حملة إلى الخليج في مايو من عام ١٨٧١، استولت على نجد والإحساء بقيادة نافذ باشا. وكان الهدف المعلن للحملة هو مساعدة الأمير السعودي عبدالله، إلا أن الأتراك سرعان ما كشفوا عن نواياهم الحقيقية وأعلنوا خلع الأسرة السعودية كلية من ولاية نجد وأقاموا بها متصرفية تركية(٤). وأدى الوجود التركي في نجد والإحساء فضلاً عن قبول شيخ قطر -

---

(*) فيصل بن تركي (١٨٤٢-١٨٦٥) الأمير السعودي الذي نجح في إعادة ملك السعوديين في نجد والإحساء بعد زوال السيادة المصرية من جزيرة العرب. وبعد وفاته حدث نزاع بين ولديه عبدالله وسعود أدى إلى نهاية ملك السعوديين مرة أخرى.

(**) مدحت باشا: أحد زعماء الإصلاح في الدولة العثمانية، حكم في البلقان ثم تولى ولاية بغداد ١٨٧٠، كان من ألد أعداء بريطانيا ومن مؤيدي عودة الحكم العثماني بقوة إلى البلاد العربية، أرسل حملته الشهيرة إلى الخليج بقيادة نافذ باشا.

(١) J.B. Kelly, Britain and the Persian Gulf (1795-1880), Oxford 1968, (1), p.730.

(٢) R.B. Winder, Saudi Arabia in the nineteenth century, New York, 1956, pp. 237-245.

(٣) I/O/R, L.P & S/20, C. 238, Persian Gulf Gazetter, Political and Historical materials, precis of Turkish expansion on the littoral and Hasa and Katif affairs, p. 14.

(٤) J.B. Kelly, Op. Cit., p. 737.

قاسم بن محمد آل ثاني – السيادة العثمانية في ممتلكاته إلى انزعاج واسع النطاق في الأوساط البريطانية، واضطرت بريطانيا إلى تغيير سياستها فيما يتعلق بإمارات الساحل الشرقي للجزيرة العربية. فإذا كانت بريطانيا قد انصب اهتمامها طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر على عقد معاهدات مع شيوخ هذا الساحل هدفت من ورائها تحقيق السلام البحري ومنع الاعتداءات على سفنها وإيقاف تجارة الرقيق ابتداء من معاهدة السلم البحري في ٨ يناير ١٨٢٠م* حتى معاهدة السلم الدائم في ١٨٥٣م، فإن الوجود العثماني في ولاية نجد وفي قطر قد دفع السلطات البريطانية إلى عقد معاهدات جديدة اهتمت فيها بفرض حمايتها على الإمارات العربية على الساحل الغربي للخليج العربي ابتداء بمعاهدتي ١٨٨١م و١٨٩٢م** مع البحرين وحتى معاهدة ١٨٩٩م*** مع الكويت(١). وكان الهدف البريطاني واضحاً من عقد هذه المعاهدات وهو منع الامتداد العثماني إلى هذه الإمارات وتهديد النفوذ والمصالح البريطانية في هذه الجهات.

وظهرت في نجد في أعقاب التدخل العثماني في شرقي الجزيرة العربية أسرة آل الرشيد. ومؤسس هذه الأسرة هو عبدالله بن الرشيد الذي كان عاملاً من عمال آل سعود، وعينه الأمير فيصل بن تركي على إمارة شمر، واستطاع أن يثبت أقدامه في هذه المنطقة، واتخذ من مدينة حائل عاصمة له. وبعد وفاته في عام ١٨٤٧م خلفه ابنه طلال، ثم جاء بعده الابن الثالث لعبدالله بن الرشيد وهو محمد بن الرشيد (١٨٧٢م – ١٨٩٧م) والذي يعد من أهم رجال هذه الأسرة، فقد استطاع بمساعدة

(*) معاهدة السلم البحري ١٨٢٠: فرضتها بريطانيا على حكام الساحل العماني بعد نجاح حملة ١٨١٩ في تدمير الشارقة ورأس الخيمة بهدف منع تكرار الاعتداءات العربية على السفن البريطانية العاملة في الخليج.

(**) معاهدة ١٨٨١ مع البحرين: تعهد شيخ البحرين بمقتضى هذه الاتفاقية بعدم التفاوض أو الدخول في اتفاق مع دول أجنبية أو إقامة مستودعات في أراضيه إلا بموافقة الحكومة البريطانية.

معاهدة ١٨٩٢ مع البحرين: فرضت بريطانيا بمقتضى هذه المعاهدة الحماية على البحرين حيث تعهد الشيخ بعدم التنازل أو بيع أو تأجير أو رهن أي جزء من أراضيه لدولة أجنبية، أو الدخول في مفاوضات سياسية أو اعتماد ممثلين أجانب في بلاده بدون موافقة بريطانيا.

(***) معاهدة ١٨٩٩ مع الكويت: فرضت بريطانيا بهذه المعاهدة الحماية على الكويت، ونصوصها هي نفس نصوص معاهدة ١٨٩٢ مع البحرين.

(١) C.U. Aitchison, A Collection of treaties, engagements and sands relating to India and neighbouring countries, Callcautta, 1892, p. 135.

العثمانيين من توسيع إمارته لتشمل كل بلاد نجد من وادي السرحان إلى وادي الدواسر[١]. إلا أن أهم ما حققه محمد بن الرشيد كان استيلائه على مدينة الرياض خلال فترة النزاع السعودي ما بين عبدالله وسعود. وهكذا لم يجد عبدالرحمن بن فيصل – الابن الثالث لفيصل بن تركي – آملاً في الحكم فغادر نجد، ولجأ إلى الكويت ومعه ابنه عبدالعزيز عام ١٨٩١م، وخلصت منطقة نجد لآل الرشيد الذين اعترفوا بالولاء للدولة العثمانية[٢].

ومع بداية القرن العشرين تجددت جهود السعوديين لإعادة حكمهم في نجد متمثلة في شخص عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، ففي عام ١٩٠١م قاد الأمير السعودي حملة أعدها له أمير الكويت ضد آل الرشيد. ولم تنجح هذه الحملة لعدم رغبة ابن سعود في نجاحها؛ ربما لخوفه أن تنتقل السلطة في نجد من آل الرشيد إلى آل صباح[٣]. وبعد فترة قصيرة أعد عبدالعزيز حملة من خلصائه وأتباعه لتحقيق أهدافه، وقد انزعج ابن الرشيد – حليف الدولة العثمانية – من هذه المحاولات خاصة وقد كانت آتية من الكويت الخاضعة في ذلك الوقت للنفوذ والحماية البريطانية، واستنجد ابن الرشيد بالدولة العثمانية التي أخذت تقيم الصعوبات في وجه ابن سعود، ومن أهم ما قامت به هو منع أية إمدادات تصله من منطقة الإحساء الساحلية[٤].

وصمم عبدالعزيز بن سعود على استرجاع نجد، ولم يثنه فشله الأول ومحاولات العثمانيين، فبعد عدة شهور من فشل محاولته الأولى أعد قوة من ستين رجلاً لمهاجمة الرياض واستخلاصها من يد عامل الرشيد عليها – عجلان، وتمكنت القوة السعودية بالفعل من التسلل إلى حصن مدينة الرياض المعروف بالمصمك والاستيلاء عليه، وقتل عجلان والاستيلاء بعد ذلك على المدينة كلها[٥].

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت – ١٩٨٨م، ص٧٤١.

(٢) فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، مكة ١٣٥٢هـ، ص٣٥٢.

(٣) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، المجلد السابع، طبعة خامسة، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٦٩–١٧٠.

(٤) فؤاد حمزة، مرجع سابق، ص٣٥٤.

(٥) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، مجلد ٧، مصدر سابق، ص ص١٧٨–١٧٩.

كانت الانتصارات الأولى لابن سعود تعني ضياع نفوذ العثمانيين في نجد بعد أن ضاع في إمارات الساحل التي ازداد فيها النفوذ الإنجليزي، كما شكل استيلاء السعوديين على مدينة الرياض خطراً على حكم آل الرشيد، واستنجد ابن الرشيد بالعثمانيين طالباً العون، وأرسلت الدولة العثمانية حملة إلى نجد رفعت العلم العثماني في بعض أنحائها لإثبات أن النفوذ العثماني ما زال موجوداً في هذه المنطقة[١].

وأمام التحالف بين العثمانيين وأمير حائل* اضطر ابن سعود إلى البحث عن وسائل لإحباط هذا التحالف، وذلك عن طريق إجراء تعديلات في سياسته الخارجية. وتوضح تعديلات ابن سعود الجديدة مدى التطور في السياسة التي اتبعها آل سعود منذ بداية حكمهم في نجد، وموقفهم من الوجود البريطاني بالقرب من سواحل شبه الجزيرة العربية، فلم يحدث منذ قيام الحكم السعودي في نجد أي تقارب بين حكام آل سعود والسلطات البريطانية. إلا أن وجود عبدالعزيز مع أبيه عبدالرحمن فترة تقدر بعشر سنوات في الكويت، وهي فترة خصبة بالأحداث الدولية والمحلية في منطقة الخليج وسواحل الجزيرة العربية الشرقية، قد أكسبته تجربة واسعة ودراية بالشئون الدولية لم يعرفها أسلافه من الحكام السعوديين السابقين الذين قضوا معظم حياتهم داخل نجد[٢].

كان أهم درس تعلمه ابن سعود خلال فترة إقامته في الكويت هو مدى قوة بريطانيا في الوقوف أمام المحاولات العثمانية لمد نفوذها وسيادتها على إمارات الخليج. فلقد عاصر النزاع بين العثمانيين وحاكم الكويت مبارك الصباح (١٨٩٦-١٩١٥م) ولجوء الأخير إلى السلطات البريطانية التي عقدت معه معاهدة الحماية في عام ١٨٩٩م التي حمت الكويت من محاولات ضم العثمانيين لها.

وبالفعل سارع عبدالعزيز بن سعود في الدخول في مراسلات مع الإنجليز.

(*) حائل هي عاصمة إقليم جبل شمر في منطقة نجد بالجزيرة العربية وكانت مقر حكم أسرة آل الرشيد الذين عهد لهم العثمانيون بحكم نجد بعد زوال الحكم السعودي منها نتيجة للتدخل العثماني منذ حملتهم على الخليج في ١٨٧١.

(١) زاهية قدروه، تاريخ العرب الحديث، بيروت ١٩٨٥م، ص ص٢٠-٢١.

(٢) H.C. Armstrong, Lord of Arabia, Ibn Saud, an intimate study of a king, Beiruit 1966, p. 16.

فبعد استيلائه على الرياض عام ١٩٠٢م كتب ابن سعود إلى المقيم البريطاني في بوشهر كمبال Kemball يخبره أنه تلقى عروضاً بالمساعدة من القنصل الروسي في البصرة، ولكنه مع ذلك يفضل صداقة الإنجليز(١).

هذه المحاولة الأولى من ابن سعود للتحالف مع الإنجليز لم تلق آذاناً صاغية من قبل المقيم البريطاني في الخليج، فلم يرد كمبال رداً مناسباً، وذلك لشكه آنذاك في فرص نجاح ابن سعود، إضافة إلى عمله أن حكومة الهند البريطانية لا تزال متمسكة بسياستها التقليدية بعدم التدخل في الشئون الداخلية للجزيرة العربية(٢).

لكن ابن سعود استمر في اتصالاته بالإنجليز بسبب مخاوفه من تحالف ابن الرشيد والعثمانيين. وفي ٢ مايو ١٩٠٤م أجرى الأمير السعودي اتصالاً مع المقيم البريطاني الجديد في الخليج Sir Percy Cox* طالباً من السلطات البريطانية التدخل لمنع المساعدات العثمانية لابن الرشيد، وإرسال إمدادات حربية له، كما عرض عبدالعزيز استعداده لقبول ممثل بريطاني في الرياض مقابل مساعدة بريطانيا له في مقاومة أعدائه.

وقد رحب كوكس بفكرة التعاون مع ابن سعود وحاول إقناع السلطات البريطانية بذلك، فقد أوضح كوكس أن التعاون مع الأمير السعودي سيساعد على مكافحة أعمال القرصنة التي تجددت في مياه الخليج بسبب تدخل العثمانيين في المنطقة منذ عام ١٨٧١م. والأهم من ذلك في نظر كوكس أن ذلك سيضع ابن سعود تحت رقابة بريطانيا، ومن ثم فهو ضمان لعدم قيامه بمهاجمة مشيخات الخليج التي كانت تحت الحماية البريطانية(٣).

وعلى الرغم من وجاهة المبررات التي ساقها كوكس لتعاون بريطاني مع ابن

(*) تولى كوكس وظيفة المقيم البريطاني في الخليج ومقره بوشير Bushire على الساحل الإيراني للخليج خلفاً لكمبال فيما بين ١٩٠٤ وحتى ١٩١٣. ويعد من أنشط الموظفين البريطانيين الذين ساهموا في إرساء دعائم النفوذ البريطاني في منطقة الخليج من خلال علاقاته الوطيدة مع الحكام العرب. وقد تولى قيادة الحملة البريطانية على العراق في بداية الحرب العالمية الأولى.

(١) I/O/R, L/P & S/18, B. 437, Historical Memorandum on Ibn Saud, p. 27.

(٢) Ibid, p. 28.

(٣) Philp Grave, The Life of Sir Percy Cox. London 1951, p. 106.

سعود فإن السلطات البريطانية في الهند وكذلك الحكومة البريطانية بلندن لم يكن لديهم استعداد للتدخل في شئون الجزيرة العربية، وفي ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٤م كتب وزير شئون الهند إلى نائب الملك بالهند حول هذا الموضوع قائلاً:

«تود حكومة جلالة الملك أن يكون مفهوماً وبوضوح أن المصالح البريطانية والنفوذ البريطاني مقصوران فقط على ساحل شرقي الجزيرة العربية، ويجب أن لا يقال شيء أو يتم إي إجراء فيه التزام بين بريطانيا وبين القوى المتحاربة في داخل شبه الجزيرة العربية»(١).

الواقع أن وجهة النظر البريطانية التي عبر عنها وزير شئون الهند في الحكومة البريطانية توضح أن حكومة لندن فضلت التريث في التدخل في أمور الجزيرة العربية بسبب وجود مشاكل معلقة مع العثمانيين قد يعقدها تدخل بريطاني في جزيرة العرب. فقد كانت حكومة بريطانيا تحاول تسوية مسألة مد خط حديد بغداد إلى الخليج، كذلك كانت الحكومة البريطانية مشغولة بمحاولة حل المسألة الإيرانية مع روسيا(٢). هكذا فإن مسائل السياسة الدولية الأكثر إلحاحاً كانت أكثر أهمية بالنسبة للحكومة البريطانية من نظرة كوكس في تهديد إمارات الخليج من قبل ابن سعود.

ومن جهته لم يكن لدى ابن سعود الذي وعى الدرس جيداً – خلال الفترة الأولى من إحياء دولته في نجد – أية نوايا لتهديد إمارات ساحل شرقي الجزيرة العربية حتى لا يغضب السلطات البريطانية. لكنه في نفس الوقت كان يريد التوسع، ولذا بحث عن مجالات لا تعارضه فيها بريطانيا، واستولى ابن سعود على القسم الجنوبي من نجد الذي توجه بالاستيلاء على منطقة القصيم في عام ١٩٠٦. وبعد ذلك تطلع ابن سعود إلى إقليم عَدَّهُ مجالاً حيوياً لتوسعه على أساس تبعيته للسعوديين خلال دولتهم الأولى والثانية(٣)، وفي نفس الوقت فإن التوسع فيه لا يثير غضب الإنجليز بسبب وقوعه تحت سيادة الدولة العثمانية وهكذا صار إقليم

---

(١) I/O/R, L/P & S/18, B 437, Historical Memorandum on Ibn Saud, p. 35.

(٢) زاهية قدوره، المرجع السابق، ص٢١.

(٣) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأولى، القاهرة ١٩٨٥م، ص٣٦٥ وما بعدها.

الإحساء الذي كان تحت سيادة الدولة العثمانية هو المجال الطبيعي لإرضاء طموح ابن سعود من جهة، ويبعده عن التورط مع بريطانيا من جهة أخرى[١].

وكان هناك سبب آخر أكثر أهمية، جعل ابن سعود يفكر بصورة جدية في الاستيلاء على إقليم الإحساء، ففي الوقت الذي رفضت فيه السلطات البريطانية تقديم المساعدة والعون لابن سعود بل ورفضت ما عرضه عبدالعزيز من تعاون واستقبال مبعوث بريطاني في أراضيه، وصل إلى مسامعه أنباء المحادثات الإنجليزية – العثمانية، التي انتهت بعقد اتفاق بين الطرفين عام ١٩١٣ الذي وضع حلولاً للمسائل المعلقة بين بريطانيا والدولة العثمانية في الخليج وجنوب العراق، ولقد خشى ابن سعود أن تقرر المحادثات الإنجليزية/ العثمانية شيئاً يتعلق بالإحساء يمنعه من تحقيق طموحاته في هذه الأنحاء، لذلك سارع ابن سعود بشن غارة على الإقليم، ولم تصادف القوة السعودية أية مقاومة تذكر – حيث كان العثمانيون – بسبب صعوبات الموقف في البلقان قد اضطروا إلى إنقاص حامياتهم في الإحساء، وقد قدرت تلك الحامية في ذلك الوقت بما لا يزيد عن ٤٠٠ فرد. وبهذه الهجمة المفاجئة تمكن ابن سعود من الاستيلاء على الإحساء، وضمن له ذلك وجوداً على ساحل الخليج منذ أبريل ١٩١٣م[٢]. على أية حال أدى وصول عبدالعزيز بن سعود إلى ساحل الخليج بعد احتلاله الإحساء إلى انقلاب في علاقته مع بريطانيا، فبعد أن كان الأمير السعودي هو الذي يسعى ويعرض تعاونه مع بريطانيا، بدأت السلطات البريطانية تنظر بحذر لتواجده على ساحل الخليج بالقرب من الإمارات التي كانت تحت حماية بريطانيا، وكان ذلك بداية لسعي بريطانيا للوصول إلى تفاهم مع أمير نجد والإحساء بخصوص إمارات الخليج، وكان مما أثار مخاوف بريطانيا بصفة خاصة هو خضوع قبيلة بني مرة لابن سعود بعد احتلاله الإحساء، وهي القبيلة التي لم تخضع للنفوذ العثماني، وترتب على خضوعها لعبدالعزيز أن أصبحت القوات السعودية أكثر قرباً من مناطق النفوذ البريطاني على الساحل الشرقي للجزيرة العربية[٣].

---

(١) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي (من بداية العصور الحديثة حتى أزمة ١٩٩٠–١٩٩١م، القاهرة ١٩٩١م)، ص١٨٦.

(٢) جلال يحيى، العالم العربي الحديث والمعاصر، فترة ما بين الحربين العالميتين، جـ٢، الإسكندرية ١٩٩٨م، ص ص٢٩–٣٠.

(٣) I/O/R, 15/3/XXV/4. Arabian Politices, p. 33.

في ٩ أغسطس ١٩١٣م أبرق كوكس إلى حكومة الهند يحذر بشدة من مخاطر ابن سعود ووصوله إلى منطقة الساحل. وجاء في هذه البرقية:

«إن ابن سعود في موقف الآن يستطيع أن يثير من خلاله المتاعب لنا في عمان وساحل الصلح وقطر، وهي متاعب يمكن أن يتعاون معه فيها الباب العالي... والأمر الآن لم يعد مجرد رغبة منا للتدخل في سياسة وسط الجزيرة العربية، كما أن وجود عبدالعزيز بن سعود على ساحل الخليج هو تهديد لمصالحنا في المنطقة والتي نحن بحاجة إليها لحماية مصالحنا في الهند»(١).

إن اللهجة التي استخدمها كوكس في إظهار مخاطر وصول النفوذ السعودي إلى الخليج على المصالح البريطانية جعلت حكومة الهند البريطانية تسارع في اتخاذ إجراءات جديدة لم تتخذها من قبل. وقد انتهز ابن سعود هذه الفرصة واستغلها بذكاء لزيادة مخاوف بريطانيا من ناحية، وحث السلطات البريطانية على الاستجابة له والوصول إلى تفاهم معه يساعده في مواجهة أعدائه من جهة أخرى بتوجيهه رسالة لأول مرة عن حقوقه في بعض سواحل الخليج. فبعد استلام برقية كوكس أرسلت حكومة الهند بعض موظفيها في الخليج لمعرفة نوايا عبدالعزيز بعد وصوله إلى الإحساء. واجتمع شكسبير Shaksepeer وتريفور Tryfore في ديسمبر ١٩١٣م منع ابن سعود الذي عبر عن حقوقه في ساحل عمان وغيرها. إلا أنه أعلن في نفس الوقت عن عدم رغبته القيام بأي عمل من شأنه أن يعكر صفو صداقته مع البريطانيين. وفي مذكرة حول هذه المقابلة لحكومة الهند جاء فيها:

«...أشار ابن سعود إلى أنه يعدُّ الساحل العماني المتصالح وقطر جزءاً من أراضي أسلافه، ولكنه ورغبة منه في مصالحة البريطانيين ورغبته في عدم فقده لتعاطف الحكومة البريطانية معه، فإنه امتنع بعد غزو الإحساء عن مد نفوذه إلى هذه المناطق»(٢).

وجاء اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام التالي ليبدأ معها مرحلة حاسمة

---

(١) Ibid., p. 35.

(٢) I/O/R. 15/3/XXV/I, Memorandum of an Interview with Ibn Saud, 15-16 Dec. 1913.

من العلاقة بين ابن سعود وبريطانيا وخاصة منذ انضمام الدولة العثمانية إلى جانب المانيا، حيث حاول الطرفان – الدولة العثمانية وبريطانيا – جذب ابن سعود إلى معسكره. فقد حرصت بريطانيا منذ نشوب الحرب على كسب ولاء الأمراء العرب جميعاً خوفاً من نجاح الدولة العثمانية في استغلال العاطفة الدينية لدى هؤلاء الحكام، الأمر الذي سيمكن الدولة العثمانية من قطع سير البواخر البريطانية ونقل قوات بريطانيا العسكرية عبر الخليج. ولذلك وصلت تعليمات من تشمبرلين وزير خارجية بريطانيا إلى اللورد هاردنج – نائب الملك في الهند – بضرورة العمل على الاتصال بالأمراء العرب على سواحل جزيرة العرب المطلة على الخليج، وكسب ولائهم حتى لا ينضموا للعثمانيين. وبناء على ذلك فقد وصل هاردنج نفسه في يناير ١٩١٥م إلى الكويت للاجتماع بالأمراء العرب لهذا الغرض. غير أن هذا الاجتماع لم يسفر عن شيء، ولم يحضره ابن سعود لانشغاله في حروبه مع ابن الرشيد[(١)].

كذلك حاولت الدولة العثمانية استمالة ابن سعود إلى جانبها، واتخذت عدة إجراءات قبيل الحرب وبعد اندلاعها لهذا الغرض. فبعد احتلال ابن سعود للإحساء اعترفت الدولة العثمانية بالأمير السعودي والياً على إمارة نجد ومتصرفية الإحساء ومنحته اللقب العثماني «باشا» في محاولة منها لوضعه تحت السيادة العثمانية. وبعد اندلاع الحرب أرسلت الدولة العثمانية وفداً إلى الرياض ومعه مبلغاً كبيراً من الليرات الذهبية كمنحة للأمير السعودي، وحاول رئيس الوفد – السيد محمود شكري الألوسي – إغراء ابن سعود باتخاذ جانب الدولة العثمانية ضد بريطانيا وحلفائها. وبعد فترة وجيزة أرسل الباب العالي بعثة أخرى إلى الرياض برئاسة طالب النقيب لنفس الغرض وهو استمالة ابن سعود إلى الجانب العثماني[(٢)].

---

(١) يعدُّ وصول هاردنج – نائب الملك في الهند – إلى الخليج في يناير ١٩١٥م دليلاً على خطورة الموقف بالنسبة لبريطانيا وعظم المهمة المكلف بها وهي المرة الثانية التي يصل فيها نائب الملك بنفسه إلى منطقة الخليج بعد الزيارة التي قام بها اللورد كيرزون (١٨٩٩–١٩٠٥م) إلى الخليج عام ١٩٠٣م كرد فعل لزيادة النفوذ الأوربي في المنطقة أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين:
Lord Hardinge, My Indian years, The reminuscenices of lord Hardinge of Penshurst, London 1945, pp. 111-115.

(٢) John Philipy, Arabia, London, 1950, p. 393.

أما ابن سعود فكان لا بد أن يستغل هذا الموقف بذكائه المعروف وبطريقة لا تخلو من المكر والدهاء لتحقيق أكبر قدر من المكاسب، ولذلك نراه في البداية لا يتخذ أي جانب من الجانبين بصورة رسمية. بل أعلن اتخاذه موقف الحياد. إلا أنه وبصورة غير رسمية اتخذ جانب الإنجليز حيث أدرك أن موقفهم أفضل من موقف العثمانيين من جهة، ومن جهة أخرى – وهذا هو الأهم في نظر ابن سعود – فإن العثمانيين رغم اعترافهم به كأمير لنجد ومتصرفية الإحساء فإنهم حلفاء لعدوه ابن الرشيد. إننا نرى أن السبب الرئيسي الذي جعل أمير نجد لا يتخذ موقف بريطانيا بصورة رسمية رغم اقتناعه بأن قوتها أفضل كان عدم موافقة بريطانيا حتى ذلك الوقت على عقد معاهدة تعاون وتحالف معه.

لذلك فقد حاول ابن سعود أن يستغل هذه الفرصة لإجبار بريطانيا على التحالف معه رسميا كي يضمن معاونتها له ضد أعدائه وخاصة أمير حائل. ففي المقابلة التي تمت بين ابن سعود والكولونيل شكسبير – الوكيل البريطاني بالكويت أنذاك – الذي قام في بداية الحرب وقبل احتلال الإنجليز لمدينة البصرة بزيارة إلى نجد، عرض المسئول البريطاني على الأمير السعودي معاونة الجيش الإنجليزي في الهجوم على البصرة، لكن ابن سعود رفض ذلك وأوضح لشكسبير أنه يود تحرير البصرة من الحكم العثماني، ولكنه يرى أن تعقد معاهدة بينه وبين الحكومة البريطانية قبل قيامه بعمل مهم كالذي عرضه عليه، كذلك حاول ابن سعود أن يثير قلق بريطانيا كي تسارع بعقد معاهدة معه حين أوضح للمسئول البريطاني شكسبير – والذي بدوره نقل ذلك للسير كوكس قائد حملة العراق الإنجليزية – بأن عدم عقد معاهدة معه قد يسبب له حرجاً حيث من الممكن أن يضطر إلى اتخاذ مواقف قد تكون في صالح الدولة العثمانية[1].

ومن أهم الأحداث التي وقعت في العام ١٩١٥م وأدت إلى إسراع الطرفين – ابن سعود والسلطات البريطانية – بعقد معاهدة كان هجوم ابن الرشيد بطلب من

---

(١) جمال زكريا قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر «الأوضاع الداخلية في إمارات الخليج العربية وعلاقات الجوار فترة الحربين العالميتين وما بينها (١٩١٤–١٩٤٥م) مجلد ٣، القاهرة ١٩٩٧م، ص٢٨.

الدولة العثمانية على قوات ابن سعود بالقرب من الرياض في أواخر يناير من ذلك العام وفي الوقت الذي كان فيه شكسبير في محادثاته مع أمير نجد، وفي الحرب التي دارت نتيجة لهذه الهجوم حارب شكسبير في صفوف ابن سعود، وقتل هذا الضابط الإنجليزي في معركة أجراب(١). ولم تنته هذه الحرب مع ذلك نهاية حاسمة، حيث عاد الفريقان – ابن سعود وابن الرشيد – إلى عاصمتي ملكهما وكل منهما يدعي النصر في المعركة، ثم عقدت معاهدة صلح بين الأميرين بعد فترة قصيرة من المعركة إلا أنه كان صلحاً هشاً حيث استمر الصراع قائما بين الطرفين(٢).

لقد ساعدت وقائع معركة أجراب على وصول ابن سعود إلى قناعة تامة باستحالة تحسين علاقاته مع الدولة العثمانية كذلك أدرك الأمير السعودي صعوبة بقائه منعزلاً ما دام عدوه الرئيسي ابن الرشيد ومعه النفوذ العثماني يحاولان القضاء عليه، من جهة أخرى فإن مقتل شكسبير في المعركة أدى إلى ظهور أصوات عالية في الدوائر الإنجليزية بضرورة التفاهم مع ابن سعود وعقد معاهدة معه، وكان من أعلى هذه الأصوات السير برسي كوكس الذي طالب السلطات البريطانية بالسماح له بمقابلة الأمير السعودي وعقد هذه المعاهدة معه، وبالفعل تقابل كوكس والأمير السعودي في القطيف وعقدت المعاهدة المعروفة باسم معاهدة «دارين». وكان من أهم نصوص هذه المعاهدة: اعتراف بريطانيا باستقلال ابن سعود وحماية أراضيه من أي اعتداء خارجي، كما فرضت بريطانيا على الأمير السعودي – في محاولة منها لإكمال سلسلة المعاهدات التي عقدتها مع شيوخ وأمراء الخليج – أن يمتنع عن التصرف بنقل ملكية أراضيه إلى أية دولة أجنبية، ومنعه من إقامة علاقات سياسية مع أية قوة غير بريطانيا. أيضاً اهتمت بريطانيا – من خلال نصوص المعاهدة – اهتماماً خاصاً بعدم قيام أمير نجد بمحاولة التوسع في المناطق المشمولة بحماية بريطانيا في الخليج(٣).

ويلاحظ من قراءة نصوص معاهدة ١٩١٥م بين بريطانيا وابن سعود للوهلة الأولى أن هذه المعاهدة لم تكن تتفق وطموحات الأمير السعودي الذي في

---

(١) G. Troeller, The Birth of Saudi Arabia "Britain and the rise of the house of Saud. London 1976, pp. 84-86.

(٢) صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، جـ٢، بيروت ١٩٥٧م، ص ص١٦٨-١٦٩.

(٣) I/O/R L/P & 5/18, B. 437, Historical Memorandum on Ibn Saud, pp 32-39.

غضون ما لا يزيد على عشرة أعوام كان قد استولى على الجزء الأكبر من نجد وعلى إقليم الإحساء، إلا أن القراءة المتأنية لهذه النصوص توضح أن المعاهدة كانت تتفق مع طبيعة الموقف والظروف التي كان يمر بها ابن سعود من جهة، ووضع بريطانيا في شرقي الجزيرة العربية من جهة أخرى. فلا شك أن معاهدة دارين قللت من قدر ابن سعود، عندما وضعته في نفس المكانة التي كان فيها أمراء هذا الساحل الخاضعين لحماية بريطانيا، ولكن وضع بريطانيا في الجزيرة العربية – شرقها وغربها وجنوبها – لم يكن يسمح لابن سعود بشروط أفضل مما فرضته عليه معاهدة ١٩١٥م. ففي أبريل من نفس العام وقعت بريطانيا معاهدة مع الإدريسي حاكم عسير هي معاهدة «جيزان» والتي أعلن الإدريسي بعدها حربه ضد الدولة العثمانية كذلك نجحت بريطانيا في العام نفسه من عقد تحالف مع الشريف حسين في الحجاز. وبتلك التحالفات أصبح ابن سعود مطوقاً بالنفوذ الإنجليزي من الجنوب والغرب إضافة إلى الوجود الفعلي لذلك النفوذ من جهة الشرق في إمارات الخليج العربي، وكان أهم ما يخشاه ابن سعود أن تقوم القوة الإنجليزية بمحاصرته في الإحساء واحتلال هذا الإقليم على أساس أنه من ممتلكات الدولة العثمانية[١].

يضاف إلى ذلك أن كثرة أعداء ابن سعود لم تترك له فرصة الاعتراض على شروط معاهدة دارين وتعديل بعض بنودها في الوقت الذي كان في أمس الحاجة إلى مساعدة بريطانيا، فلم يكن ابن الرشيد هو العدو الوحيد لابن سعود ولن كان العدو الرئيسي له. لكن كان هناك أيضاً شريف مكة – الحسين بن علي – الذي كان يعمل على إضعاف ابن سعود، وسوف نتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد. كذلك كان هناك خطر كبير على ابن سعود من جهة أمير الكويت – الشيخ مبارك وخلفائه الذين شجعوا قبائل العجمان للثورة ومهاجمة أراضي ابن سعود وإمدادهم بالأسلحة اللازمة لذلك.

ولا شك أن وراء أسباب العداء بين ابن سعود والشيخ مبارك الصباح* قلق الأخير – بعد النجاحات التي حققها ابن سعود – من طموح الأمير السعودي الذي

(*) تولى مبارك الصباح حكم الكويت ما بين ١٨٩٧ و١٩١٥ وعقد معاهدة الحماية مع بريطانيا عام ١٨٩٩ رداً على المحاولات العثمانية في الكويت، وقد قرب إليه عبدالعزيز بن سعود أثناء إقامته مع والده عبدالرحمن في الكويت، وساعده في حملته الأولى على الرياض.

(١) صلاح الدين المختار، مرجع سابق، ص ٣٧٨.

دربه بنفسه على شئون السياسة، مع اقتناعه أن عبدالعزيز كان وراء فشل الحملة الأولى التي أعدها الشيخ – مبارك لاسترداد الرياض لاعتقاده أن نجاحها سيؤدي إلى انتقال السلطة في نجد من آل الرشيد إلى آل صباح، ولذلك عمل على إثارة قبائل العجمان ضد ابن سعود. وبعد وفاة الشيخ مبارك في نهاية عام ١٩١٥م، لم يعمر خليفته الشيخ جابر طويلاً، ولم يؤد حكمه إلى نتائج مهمة بخصوص خطر هذه القبائل اللاجئة في الكويت ضد ابن سعود. كذلك عرف الشيخ سالم الصباح (١٩١٧–١٩٢١م) بخصومته الشديدة لابن سعود[١]. وكان خطر العجمان وهجماتهم ضد ابن سعود خطراً شديداً أخذ من جهده كثيراً لدرجة أنه عدَّهُ السبب الرئيسي لعدم قدرته على تحقيق انتصارات حاسمة على ابن الرشيد. وقد أوضح ذلك ابن سعود في مقابلته مع كوكس في سبتمبر سنة ١٩١٦م عندما أعلن «أن سبب فشله في إيقاع ضربة قاضية بابن الرشيد هو حروبه ضد بعض قبائل آل مرة وقبائل العجمان، وأنه لا يستطيع أن يواصل الحرب في جبهتين في آن واحد»[٢].

على أية حال فقد حقق ابن سعود بعض المكاسب المهمة من توقيع اتفاقية دارين كان أهمها إمداد بريطانيا له بالسلاح الذي كان في أمسّ الحاجة إليه لمواجهة قبائل العجمان وابن الرشيد، كذلك حصل على إمدادات مالية وعينية من بريطانيا، فضلاً عن السماح له باستيراد الذخيرة من البحرين[٣].

وكانت الاستفادة التي حققها ابن سعود من تحالفه مع بريطانيا، وتمكنه من الوقوف في وجه أعدائه سبباً مهماً في تحول علاقته معها، حيث أعلن بعد توقيعه المعاهدة اتخاذه جانب بريطانيا وحلفائها، كما عبر عن امتنانه بإظهار روح العداء للدولة العثمانية. ففي عام ١٩١٦ دعا كوكس الزعماء العرب إلى عقد اجتماع في الكويت للتحقق من حسن نوايا هؤلاء الزعماء تجاه بريطانيا، وفي نفس الوقت لحثهم على مؤازرة الشريف حسين بن علي وتأييد ثورته التي أعلنها ضد الدولة العثمانية وعقد المؤتمر في ٢٣ نوفمبر وحضره ابن سعود، وشيخ الكويت – جابر الصباح – وشيخ المحمره إضافة إلى أكثر من مائة من رؤساء العشائر العربية في

(١) H.R. Dickson, Kuwait and her neiboures, London 1956, P. 24.

(٢) I/O/R, L/P & 5/18, B. 437, Historical Memorandum on Ibn Saud, P. 38.

(٣) Ibid., p. 40.

منطقة الإحساء وجنوب العراق. وأظهر ابن سعود خلال هذا المؤتمر روحاً عدائية للدولة العثمانية، وصرح ببغضه الشديد لهما. ومما قاله ابن سعود في هذا المؤتمر:

«إنه عدو للترك وهم له أعداء، وإنه سيطاردهم ولو وحده؛ لأنه لا يذكر لهم سوى الشر له ولآبائه من قبل، فقد قتلوا من قتلوا منهم ومثلوا ببعضهم أشنع تمثيل»[(١)]. وبسبب هذا الموقف العدائي ضد الدولة العثمانية قلد كوكس عبدالعزيز بن سعود في نهاية المؤتمر وشاح نجمة الهند[(٢)]. كذلك فإن السلطات البريطانية عبرت بدورها عن امتنانها لموقف ابن سعود العدائي ضد الدولة العثمانية فبعد انتهاء مؤتمر الكويت دعا كوكس ابن سعود إلى البصرة حيث تم الاتفاق معه على منحه شهرياً مبلغ خمسة آلاف جنيه، إضافة إلى الأسلحة والذخائر الكافية لتجهيز أربعة آلاف مقاتل لمحاربة حليف الدولة العثمانية ابن الرشيد[(٣)].

وإذا كان ابن سعود قد حقق هذه المكاسب التي أرضته وأمنته من أعدائه خلال هذه المرحلة، فإن المستفيد الأكبر من عقد معاهدة دارين مع ابن سعود كانت بريطانيا التي ضمنت وقوف الأمير السعودي في جانبها بصورة رسمية، وحاصرت ابن الرشيد الموالي للدولة العثمانية بطموح ابن سعود، وحمت إمارات الخليج من أي توسع سعودي، أما في غرب الجزيرة العربية فقد اتخذت بريطانيا إجراءات معينة مع شريف مكة – الحسين بن علي – خلال فترة الحرب، ساعدت على زيادة التوتر بين الحاكمين العربيين مما أدى إلى تفجر الصراع بينهما بعد انتهاء الحرب.

٣ – بريطانيا والحسين بن علي قبيل وإبان الحرب العالمية الأولى:

من المعروف أن فكرة القومية العربية ظهرت في الجزء الخاضع للسيادة المباشرة للدولة العثمانية من العالم العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر، ثم خطت هذه الفكرة خطوات واسعة في السنوات الأولى من القرن العشرين في مواجهة

---

(١) عبدالعزيز الرشيد، تاريخ الكويت، جـ٢، بغداد ١٩٣٦، ص١٩٨، عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم، حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي، الطبعة الأولى، الرياض ١٩٨١م، ص٢٣٥.

(٢) G. Troeller, Op. Cit., p. 99.

(٣) I/O/R, S/18, B-437, Historical Memorandum on Ibn Saud, pp, 40-45.; محمد مرسي عبدالله، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، ط١، الكويت ١٩٨١م، ص٢٤٠.

سياسة العثمانيين الرامية إلى تتريك هذا الجزء من البلاد العربية، وكان احتلال بريطانيا لمصر عاملاً حاسماً في منع الأخيرة من أن يكون لها دور مؤثر في هذه المسألة خلال هذه الفترة(١). أما المنطقة العربية الواقعة تحت السيادة العثمانية المباشرة فقد كانت هناك مسائل خلافية كثيرة بين بريطانيا والعثمانيين بسبب تزايد النفوذ الألماني في الدولة العثمانية وممتلكاتها. وفي ظل هذه الخلافات كان من الطبيعي أن تناصر بريطانيا العرب ومطالبهم ضد الدولة العثمانية؛ إلا أن الواقع كان غير ذلك، فقد كانت بريطانيا كدولة استعمارية متخوفة من مسألة القومية العربية، وقيام وحدة تجمع الشعوب العربية في أمة واحدة، ولم تعلن بريطانيا ذلك صراحة خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، بل عبرت عن هذا التخوف في عدة مناسبات، ولعل أهم تلك المناسبات كان ذلك المؤتمر الاستعماري الذي دعت إليه الحكومة البريطانية، وحضرته معظم الدول الاستعمارية، وعقدت أول جلساته في لندن عام ١٩٠٧م ثم انتقلت أعماله إلى أكثر من عاصمة أوربية، وقد وجه كامبل بانرمان Kemball Bannerman رئيس وزراء بريطانيا رسالة إلى أعضاء المؤتمر جاء فيها:

«إن الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما، ثم تنحل رويداً، ثم تزول، والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات، وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة، ولكل أمة، فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين، وقبلها بابل وأشور والفراعنة وغيرها، فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون السقوط أو الانهيار، أو تؤخر مصير الاستعمار الأوربي، وقد بلغ الذروة، وأصبحت أوربا قارة قديمة استنفذت مواردها، وشاخت معالمها، بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى المزيد من العلم والتنظيم والرفاهية».

ورغم أن بانرمان تحدث عن مصير الاستعمار في العالم بصورة عامة، فإن نتائج المؤتمر جاءت لتعبر عن وجهة نظر بريطانيا فيما يتعلق بالمشرق العربي

(١) عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٧٩٨م، الإسكندرية ١٩٩٤م، ص ص٤٣٥-٤٣٦.

ومسألة الوحدة العربية بصفة خاصة، وجاءت وجهة النظر هذه في التقرير المعروف بتقرير كامبل بانرمان وجاء فيه:

«إن الخطر ضد الإستعمار يكمن في البحر المتوسط، فعلى الشواطئ الشرقية والجنوبية لهذا البحر يعيش شعب واحد، تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللغة، وكل مقومات التجمع والترابط، فضلاً عن ثرواته الطبيعية ونزعته للتحرر، فلو أخذت هذه المنطقة بالوسائل الحديثة وإمكانيات الصناعة الأوربية، وانتشر التعليم بها، فستحل الضربة القاصمة بالاستعمار الغربي، فيجب إذن على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر»[(١)].

وإذا كانت هذه هي وجهة نظر بريطانيا في مسألة وحدة العرب في بداية القرن العشرين والتي عبر عنها هذا المؤتمر الاستعماري، فهناك مناسبة أخرى عبرت فيها بريطانيا عن رفضها لأية محاولة وحدوية عربية خاصة بالجزيرة العربية وحدها، فخلال الحرب العالمية الأولى ناقشت لجنة بريطانية عرفت باسم «لجنة بونزن» بعض المشاريع الرامية إلى خلق خلافة عربية تشمل كل الجزيرة العربية وجميع مناطق التجمعات العربية في الخليج. لكن مجرد هذا الاقتراح لاقى معارضة شديدة من جرانت Grant – رئيس القسم الأجنبي في إدارة الهند البريطانية، وكذلك عارضه هرتزل Hertzel – رئيس القسم السياسي في مكتب الهند، وأشار المسئولان البريطانيان في تقريرهما أن بريطانيا لا ترغب في جزيرة عربية موحدة، بل في جزيرة عربية ضعيفة مفككة مجزأة إلى إمارات صغيرة تحت السيادة البريطانية، لا سبيل إلى توحدها يوماً ضد السيطرة البريطانية[(٢)].

وإذا كان مسئولا حكومة الهند البريطانية قد عبرا عن رأيهما السابق بصراحة فإن ظروفاً دولية وأهمها دخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا وحلفائها أظهرت أصواتاً بريطانية أخرى رأت ضرورة جذب العرب إلى صف الحلفاء وعلى رأسهم الجنرال ماكسويل Gen. Maxwell قائد قوات جيش الاحتلال البريطاني في مصر

---

(١) المرجع السابق، ص ص٤٩٢-٤٩٣.

(٢) G. Bondarusky, Hegemonists and Imperialists in the Persian Gulf, Moscow 1981, p. 102.

وواحد من أصدقاء اللورد كتشنر Lord Ketchener الذين ساهموا في الاحتلال البريطاني في مصر والسودان. وقد أرسل ماكسويل تقريره حول هذا الموضوع إلى لندن ناصحاً حكومتها بضرورة الاتصال بالعرب في الحجاز واليمن(١).

كذلك فإن الحكومة البريطانية لم تر في مصلحتها الإفصاح عن أية نوايا كتلك التي عبر عنها مسئولا حكومة الهند في ظل الظروف التي سادت أوربا والشرق قبيل الحرب العالمية الأولى. بل انصب اهتمام بريطانيا وحلفائها على موقف العرب خاصة وأن الظروف كلها كانت تشير إلى ضغوط ألمانية على الدولة العثمانية لدخولها الحرب إلى جانب المانيا. وكان العثمانيون باحتلالهم العراق وسوريا ووجودهم في الحجاز يهددون إنجلترا ومصالحها في منطقتين مهمتين: هما قناة السويس ومنطقة الخليج العربي التي تقع بالقرب منها آبار بترول الشركة الإنجليزية – الفارسية. كذلك كانت سيطرة العثمانيين على البحر الأحمر من شأنها أن يسمح لهم بالاتصال بمصر والسودان.

وفي شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة كان وضع العثمانيين مخيفاً بالنسبة لبريطانيا. ففي غرب الجزيرة العربية كان للعثمانيين فرقتان عسكريتان في الحجاز وعسير، كما كان في استطاعة شريف مكة أن يستغل مركزه ونفوذه الديني ويجند قوات عربية يساهم بها مع العثمانيين في الهجوم على القوات البريطانية في مصر، أما في جنوب غرب الجزيرة فقد احتفظت الدولة العثمانية بفرقتين عسكريتين في اليمن، يمكن بهما تهديد قاعدة عدن البريطانية تهديداً مباشراً.

وقد زادت تحركات العثمانيين في بداية الحرب مخاوف بريطانيا وحلفائها، فرغم إعلان الدولة العثمانية منذ البداية الحياد، فإنها أعلنت في نفس الوقت التعبئة العامة (في أغسطس ١٩١٤)، كذلك ازدادت الدولة العثمانية من قواتها العسكرية في سوريا، وقامت بتكوين تجمعات حربية قرب الحدود المصرية – الفلسطينية، كما ازدادت رحلات الضباط الألمان في البلاد العربية الخاضعة للعثمانيين، وتم تعيين بعضهم كأركان حرب للجيش العثماني الرابع المتمركز في سوريا. وقد توافق ذلك كله مع قيام الدولة العثمانية بنقل إحدى فرق الجيش العثماني – الفرقة الثانية عشرة – ومعظم أفرادها من العرب، من الموصل إلى حلب(٢).

---

(١) جلال يحيى وجاد طه، تاريخ العرب الحديث، الإسكندرية ١٩٧٤م، ص٣٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص ص٣١٩–٣٢٠.

غير أن أخطر تهديد لمصالح بريطانيا جاء عندما أعلنت الدولة العثمانية الجهاد بإصدار شيخ الإسلام في الأستانة فتوى أعلن فيها أن اتحاد كل المسلمين في العالم بما في ذلك الشعوب الإسلامية الخاضعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا هو واجب مقدس، وأن على هذه الشعوب أن ترفض معاونة الدول الاستعمارية في الهجوم على الدولة العثمانية، كما صدر بيان من هيئة العلماء في الأستانة يقضي بضرورة الجهاد وحث المسلمين على الالتفاف حول الخلافة، والدفاع عن البلاد الإسلامية، والعمل على تخليصها من الاستعمار الأجنبي[١]. وكان ذلك بداية لدخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا وحلفائها.

سارعت بريطانيا للتفكير في مواجهة هذا الموقف الصعب الذي وضعهم فيه العثمانيون، وبحثت في الشخصيات العربية التي يمكن أن تساعدها في هذه المواجهة، وفضلت في النهاية التعامل مع حسين بن علي شريف مكة.

وكان حسين بن علي يتمتع بمركز ممتاز من ناحية المساعدة العسكرية التي قد يقوم بها لصالح بريطانيا، علاوة على قيمة تدخله السياسي أيضاً، فمن الناحية العسكرية كان شريف مكة يحتل منطقة وسط الخطوط العثمانية في شبه الجزيرة العربية، فبينما لم يكن في استطاعة الإمام يحيى في اليمن أو الإدريسي في عسير القيام بشيء أكثر من شل حركة القوات العثمانية في مناطقهم، وكان ابن سعود بعيداً عن مراكز العثمانيين وخطوطهم، كان في مقدور الحسين ضرب قوة العثمانيين في بلاد العرب، وقطع خطوطهم ومواصلاتهم مع الشمال، وفصل حاميات عسير واليمن عنهم.

أما الناحية السياسية فقد كان للشريف حسين نفوذ ديني في كل العالم الإسلامي، فبحكم كونه شريف مكة وخادم الحرمين الشريفين كان باستطاعته التأثير في الشعوب الإسلامية العربية وغير العربية[٢].

كان الحسين بن علي على أية حال هو رجل الساعة بالنسبة لبريطانيا. وكانت الأخيرة مدركة تماماً لكراهية شريف مكة للعثمانيين منذ أن أجبرته السلطات العثمانية على الإقامة الجبرية في إستانبول منذ عام ١٨٩٣[٣]. وعندما أعيد إلى مكة

---

(١) نفس المرجع، ص٣٢٣.

(٢) نفسه، ص٣٢٢.

(٣) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص٧٤١.

عام ١٩٠٨م عينت معه الدولة العثمانية في الحجاز القائد وهيب باشا لمراقبته وتنفيذ ما يراه حول إدارة الإقليم[١]. كذلك كانت بريطانيا تدرك تمتع الحسين بقدر من الزكاء وحسن التدبير لتنفيذ مصالحه الخاصة. وجاء ذلك في أعقاب الاتصال الذي قام به الحسين بن علي في ربيع عام ١٩١٤م (أي قبل دخول العثمانيين الحرب) بالإنجليز طالباً مساعدتهم لتحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية. ثم عاود الاتصال بهم عندما أعلنت الدولة العثمانية الجهاد ودخول الحرب معلناً استعداده أن يصم أذنيه دون دعوة شيخ الإسلام عن الاشتراك في الجهاد أو الحرب المقدسة[٢].

وبدأت المفاوضات والمراسلات بين الحسين وبريطانيا في يوليو ١٩١٥ بالمذكرة التي أرسلها الشريف إلى هنري مكماهون H. Mackmahoon المندوب السامي البريطاني في القاهرة، وما يهمنا في أمر هذه المراسلات هو حرص الحسين منذ البداية على التكلم باسم العرب، وهو الأمر الذي أنكرته عليه بريطانيا وابن سعود بعد نهاية الحرب كما سيأتي ذكره، فقد عرض الحسين مساعدة العرب لبريطانيا إذا ما وعدتهم بالاستقلال في المنطقة الممتدة من مرسين إلى أطنه في الشمال الغربي حتى الحدود الإيرانية في الشرق، والمحيط الهندي جنوبا، وقيام خلافة إسلامية يتزعمها عربي هو الحسين في هذه الجهات.

هكذا ومنذ البداية تكلم الحسين باسم العرب جميعاً، وعبر عن آمال واسعة لهم، وكان على بريطانيا أن تتخذ سياسة المماالاة وإطالة المفاوضات حيث استمرت المراسلات بين الجانبين حتى يناير ١٩١٦م، وكل ما قدمته بريطانيا هو موافقتها على انتقال الخلافة إلى رجل عربي ينحدر من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنها لم تعط وعداً فيما يتعلق بمسألة تحديد الحدود النهائية لهذه الدولة معلنة أن حجتها في ذلك هو أن كثيراً من العرب كانوا لا يزالون يحاربون في صفوف العثمانيين، أما نوع المساعدة التي عرضها الحسين في المقابل فكانت ثمينة وقيمة جداً بالنسبة لبريطانيا، فقد تعهد الحسين بأن يحرض القبائل العربية الخاضعة والموالية له على

(١) أحمد شلبي، المرجع السابق، جـ٧، ص١٩٣.
(٢) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص٧٤٤.

أن تخوض الحرب ضد الدولة العثمانية، بل تعهد الشريف حسين بأكثر من ذلك وهو أن يشارك هو نفسه في هذه الحرب بقواته الخاصة[١].

وهكذا نجحت بريطانيا في استدراج الحسين إلى المشاركة الفعلية في الحرب ضد الدولة العثمانية، وسعت بريطانيا في نفس الوقت – نظراً لحاجتها الملحة لمساعدات الحسين – إلى إقرار الوئام بين الشريف حسين وابن سعود، وحرصت على أن يتعهد ابن سعود بعدم مهاجمة الشريف حسين أو تهديده بالقيام بعمل عسكري ضد الحجاز. فأثناء تواجد شكسبير في الرياض اقترح ابن سعود أن تقوم قواته باحتلال الحجاز وطرد الإشراف منها، ولم يكن لدى ابن سعود أي معلومات عن المحادثات التي كانت دائرة بين حسين والسير هنري مكماهون. وقد قوبل هذا الاقتراح بالرفض من قبل شكسبير الذي حذر الأمير السعودي من القيام بأي هجوم ضد الحجاز[٢].

ويظهر من مفاوضات حسين مع بريطانيا أن حماسه ضد الدولة العثمانية جعله لا ينظر إلى الأمور نظرة واقعية، فلم يكن يخفى على أحد أن أهم مسألة في المفاوضات كانت مسألة تحديد حدود الدولة العربية، كما لم يكن خافياً أيضاً أن علاقة بريطانيا بحليفتها فرنسا كانت هي السبب الرئيسي في إرجاء مسألة تعيين حدود هذه الدولة، ومع ذلك فقد تمكنت السياسة البريطانية في الحصول من الشريف حسين على كل شيء مقابل لا شيء رغم قوة مركز الحسين آنذاك وحاجة بريطانيا إلى مساعداته ضد الدولة العثمانية.

وبمقارنة موقف الحسين في مفاوضاته مع بريطانيا وموقف ابن سعود يظهر فارقاً كبيراً بين الجانبين، فابن سعود أخذ جانب بريطانيا بصورة غير رسمية قبل عقد معاهدة دارين. وحتى بعد عقد المعاهدة لم يعلن الحرب على الدولة العثمانية رغم ما عبر به عن رغبته في رؤية العثمانيين، وقد زالوا تماماً من البلاد العربية – متعللاً بخطر ابن الرشيد على دولته الوليدة. ويرجع موقف الحسين ووعده لبريطانيا بخوض حرب ضد العثمانيين إلى عاملين:

---

(١) جلال يحيى، العالم العربي الحديث والمعاصر. المدخل جـ١ الإسكندرية ١٩٨٨م، ص٥١٦.

(٢) جلال يحيى، العالم العربي الحديث والمعاصر. فترة ما بين الحربين العالميتين ص ص٣٥-٣٦.

الأول: قصر نظر الحسين بسبب حماسه ضد العثمانيين ورغبته في الخلاص منهم.

الثاني: ثقته الزائدة في بريطانيا وفي قدرتها على تحقيق أهدافه، تلك الثقة التي ربما ظهرت له نتيجة المقارنة بين معاملة بريطانيا له ومعاملتها لحليف آخر لها كابن سعود.

فلا شك أن الحسين قد أدرك أن بريطانيا قد بذلت جهوداً لحمايته ضد أية محاولات قد يقوم بها ابن سعود، كما لاحظ أيضاً أنه في الوقت الذي انتقصت فيه من سيادة ابن سعود بمقتضى معاهدة ١٩١٥م والتي وضعته في مصاف الحكام الخاضعين لحمايتها[١]، عُدَّ الشريف حسين ملكاً مستقلاً على الحجاز، بل لم يكن هذا اللقب يرضيه وسارع قبل نهاية الحرب (في أكتوبر ١٩١٦م) إلى إعلان نفسه ملكاً على العرب وطالب ابنه عبدالله من الحلفاء الاعتراف به ملكاً على البلاد العربية[٢].

كذلك أدرك الحسين أن بريطانيا عاملته من الناحية المادية بطريقة مميزة، ففي الوقت الذي قدمت فيه بريطانيا لابن سعود مبلغاً من المال لا يزيد عن ٥٠٠٠ جنيهاً شهرياً، خصصت الخزانة البريطانية للحسين مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جنيهاً شهرياً؛ كي يستعين به على إدارة شئون دولته[٣]. والأهم من ذلك كله أن ابن سعود لم يكن مسموحاً له بالاتصال بالحكومة البريطانية في لندن، بل يتم اتصاله بها عن طريق الإدارة الاستعمارية في الهند مثل غيره من حكام الخليج الخاضعين لحماية بريطانيا، بينما كان اتصال الحسين بوزارة الخارجية البريطانية رأساً أو عن طريق المعتمد البريطاني في مصر[٤]. وأخيراً فإن المعونة المالية التي خصصتها بريطانيا لابن سعود كان يتسلمها عن طريق الحسين مما يعني وضعه في مركز التابع لشريف مكة[٥].

---

(١) زاهية قدورة، المرجع السابق، ص٢٢.

(٢) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، «تاريخ حركة العرب القومية» ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، الطبعة الثامنة، بيروت ١٩٨٧، ص٤٤٤.

(٣) جلال يحيى وجاد طه، المرجع السابق، ص٣٥٦، صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصر، القاهرة ١٩٩٣م، ص٥٣.

(٤) محمد مرسي عبدالله، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١م، ص ص٢٤٠-٢٤١.

(٥) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٣٧.

على أية حال فإن الدعم البريطاني السابق للشريف حسين مادياً ومعنوياً كان سبباً في تقوية مركزه – خلال فترة الحرب – ضد ابن سعود لدرجة أن وصل الأمر بالأخير إلى تملق الحسين من خلال الرسائل التي تبادلها معه إبان فترة الحرب[١]، الأمر الذي سيتغير تماماً بعد الحرب بسبب تغيير الموقف البريطاني.

٤ – الدور البريطاني في الصراع بين إبن سعود والحسين بعد الحرب:

حصلت بريطانيا وحلفاؤها في الحرب على مكاسب مهمة من ثورة الحسين بن علي ضد الدولة العثمانية. فلقد قطعت هذه الثورة الطريق أمام انتشار العمليات العسكرية العثمانية والألمانية جنوباً في البحر الأحمر والمحيط الهندي، كذلك قطعت الثورة العربية مواصلات العثمانيين مع حلفائها في الجزيرة العربية وخاصة ابن الرشيد عدو ابن سعود اللدود، كما منعت وصول الإمدادات العثمانية إلى الفرق العسكرية العثمانية باليمن. وبذلك خدمت هذه الثورة ابن سعود خدمة عظيمة، ولذلك لا عجب أن عبر الأمير السعودي عن ابتهاجه بهذه الثورة في بدايتها لدرجة أنه كتب منشوراً حض فيه العرب على الانضمام للثورة، وانتهز الإنجليز الفرصة ونشروا آلاف النسخ من هذا المنشور في جميع أنحاء البلاد العربية[٢].

غير أن رغبة الحسين الشديدة في تحقيق أهدافه بسرعة، وثقته الزائدة في قدراته منذ بداية ثورته، وكذلك ثقته باستمرار مساعدة وتأييد الإنجليز، كل ذلك دفعه إلى الإسراع بإعلان نفسه ملكاً على العرب جميعاً – وليس الحجاز فقط – بما في ذلك الأراضي المقدسة. ولم ينتبه الحسين إلى الازدواجية في موقعه كملك للعرب وخادم للأماكن المقدسة الإسلامية والتي لا شك ستجلب له متاعب كثيرة في المستقبل القريب، كذلك أثبتت الأحداث خطأه الفادح في ثقته الزائدة في المستعمر الذي تآمر لتقسيم البلاد العربية فيما بينه في نفس الوقت الذي كان يعترف فيه بتحقيق استقلال العرب ووحدتهم.

وقد عبر جورج أنطونيوس عن الازدواجية في موقف الحسين تعبيراً حقيقياً، حين أشار إلى أن الحسين كان لديه ازدواج في موقعه في أن يكون حاكماً للبلاد المقدسة

---

(١) محمد مرسي عبدالله، المرجع السابق، ص٢٤٢.

(٢) جلال يحيى وجاد طه، مرجع سابق، ص٣٥٢.

من ناحية، ومعبراً عن آمال العرب القومية من ناحية أخرى. إلا أن هذا الموقف قد جلب له عداء مسلمي الهند الذين «لم يغفروا له ثورته على الخليفة». لاعتقادهم «بأن سلطان الدولة العثمانية هو الرأس الأوحد الذي يعترف به المسلمون». كذلك جلب له هذا الموقف عداء بعض العرب المسلمين أمثال الوهابين في نجد الذين «حالت روح المحافظة لديهم التأثر بما كان يدعو إليه (الحسين) من أماني قومية، أو هم لم يتأثروا إلى حد أن يتألفهم النظام غير الوهابي في البلاد المقدسة»(١).

أما ما يتعلق بثقة الحسين في بريطانيا وفي إمكاناته فقد ظهرت منذ البداية شواهد تحذره من ذلك كان أولها رفض الإنجليز وحلفائهم لتلقبه بلقب ملك البلاد العربية، ثم وصول أنباء عن المحادثات بين دول الحلفاء التي انتهت بالاتفاقية المعروفة بسايكس / بيكو(٢)، ولم ينتبه الحسين إلى هذه الشواهد، بل إن ثقته في الإنجليز جعلته يتنازل عن لقب ملك البلاد العربية في هذه الفترة، كما أنه هدأ بمجرد أن طمأنه الإنجليز بشأن اتفاقية سايكس / بيكو(٣). والواقع أن هذه البادرة من قبل الحلفاء كانت كفيلة لأن تظهر للحسين أنه غالى في ثقته في الإنجليز. أما إمكاناته وثقته بنفسه فقد عبر عنها بروكلمان بقوله: «إن الحسين قد غالى في تقدير قوته الفعلية بأحلام رومنتيكية عن عظمة بيته الهاشمي، كما أخطأ في تقدير مركزه في الجزيرة العربية»(٤).

ويظهر من الأسباب التي أعلنتها بريطانيا لمنع الحسين من التلقب بلقب ملك البلاد العربية كذب السياسة البريطانية وسعيها لخدمة مصالحها الخاصة على حساب اتفاقياتها وتعهداتها مع حليف كالحسين منتهزة قصر نظر الحسين وثقته الزائدة في الإنجليز. فقد أعلنت بريطانيا أن حَمْلَ الحسين للقب ملك البلاد العربية سيثير ثائرة حكام العرب الآخرين، وقدمت بريطانيا دليلاً واهياً آخر مؤداه أن

---

(١) جورج أنطونيوس، المرجع السابق، ص ص٤٤٥-٤٤٦.

(٢) وصلت هذه الأنباء للحسين بن علي عندما أذاع الروس بعد قيام الثورة البلشفية وخروج روسيا من الحرب أنباء عن المحادثات السرية بين الحلفاء لتقسيم البلاد العربية في حالة تحقيقهم الانتصار في الحرب.

(٣) عمر عبدالعزيز عمر، المرجع السابق، ص٤٣٨.

(٤) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص٧٤٩.

الحسين في أول رسالة وجهها لمكماهون تحدث عن رجاله وعن الحجاز، دون أن يشير إلى بقية البلاد العربية، وهذه الأدلة تحمل كذب سياسة بريطانيا لأنه من المعروف أن الحسين قبل أن يدخل في مراسلاته مع مكماهون كان على اتصال مع القوميين العرب في الشام والعراق،وكان المتحدث باسمهم والمطالب التي قدمها كانت مطالبهم، وعلى ذلك فإن لفظ «رجاله» يعني أتباعه من أنصار القومية العربية في الجهات التي كانت خاضعة للدولة العثمانية(١).

وإذا كانت بريطانيا قد اتخذت من اعتراض ابن سعود على تلقب الحسين بن علي بلقب ملك العرب ذريعة لمنعه من ذلك فهي مخطئة أيضاً. فلقد كان ابن سعود بعيداً عن مشروع القومية العربية وله طموحاته الخاصة،كما أن أراضي ابن سعود لم تكن في ذلك الوقت خاضعة للدولة العثمانية. ولا يبقى إلا أن بريطانيا رأت أن إعلاناً كهذا سيفسد خططها التي وضعتها بشأن الدول العربية في العراق والشام.

لقد كان طبيعياً أن يعترض ابن سعود على تلقب الحسين بلقب ملك البلاد العربية لما في ذلك من تهديد حقيقي لاستقلاله بنجد. فرغم أن الأمير السعودي قد رحب بتحالف حسين مع حلفائه الإنجليز وانشقاقه عن أعدائه العثمانيين، وقبل أن يكون شريف مكة قائد الثورة العربية، فإنه لم يخطر بباله أن يكون تابعاً للحسين في يوم من الأيام.

لكن الأمير السعودي لم يُظْهِرْ سوى امتعاضه واعتراضه فقط، بينما استمر محافظاً على وعوده للإنجليز ومخفياً شعوره بالمرارة من تصاعد موقف الحسين بسبب حاجته للإعانة المالية الإنجليزية من جهة، وانشغاله بحربه مع ابن الرشيد من جهة ثانية، بل إن الأوضاع الصعبة التي كان فيها ابن سعود أَمْلَتْ عليه أن يراسل شريف مكة ويعبر في رسائله عن تبجيله للحسين بن علي، ووصل به الأمر أن بادر عندما دخلت قوات الشريف حسين المدينة المنورة وسلمت الحامية العثمانية المدينة للأمير عبدالله بن الحسين – بإرسال تهنئة إلى الجيش العربي المظفر(٢).

---

(١) صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصر، ص٥٣٠.

(٢) أحمد شلبي، المرجع السابق، ص ص١٩٦-١٩٧.

غير أن الحسين أعطى الفرصة لأمير نجد كي يعبر عن تلك المرارة واختبار العلاقة بين شريف مكة وبريطانيا بصورة جدية في أعقاب الحرب مباشرة، وجاءته الفرصة عقب دخول قوات الحسين للمدينة المنورة حين شرع الشريف في الاستيلاء على واحة الخرمة التي عَدَّها ابن سعود داخلة في نطاق الأراضي التابعة لأجداده السعوديين وغالبية سكانها من الوهابين، وكانت عبارة عن سوق لأهل نجد يبيعون فيه منتجاتهم ومواشيهم لأهل الحجاز.

والواقع أن محاولة الحسين احتلال واحة الخرمة تعد مظهراً من مظاهر مبالغته في قوته، فقد اعتقد الحسين أن نجاحه في دخول المدينة المنورة وطرد الجيش العثماني منها هو بداية لاستيلائه على الجزيرة العربية كلها، وأرسل الحسين قوات الحجاز بقيادة ابنه عبدالله لاحتلال الخرمة، ووقع الصدام الأول بين القوتين العربيتين في المعركة الفاصلة المعروفة بمعركة «تربة» في ١٩ مايو ١٩١٩م، وسقط في المعركة آلاف القتلى من الجانبين، وكان النصر حليف ابن سعود ومقاتليه من الإخوان الذين استولوا على غنائم كثيرة كان لها أثرها في تدعيم نفوذ أمير نجد فيما بعد ضد أعدائه في جزيرة العرب وخاصة ابن الرشيد»[(١)].

لقد كان الموقف البريطاني من حادثة خرمة مسئولاً بدرجة كبيرة عن تأجج روح الصراع بين القوتين العربيتين الرئيسيتين في جزيرة العرب، ومن جهة أخرى أدى هذا الموقف إلى زيادة كراهية ابن سعود للحسين، فبريطانيا لم تكبح جماح الحسين وتمنعه من مهاجمة أراضٍ تابعة لحليف آخر لها وهو أمير نجد. وحينما صمم ابن سعود على حقوقه في الخرمة حاولت بريطانيا عن طريق مندوبها الذي أرسلته إلى الرياض – فيليبي – أن تثني الأمير السعودي عن رد الهجوم الحسيني عن أراض عَدَّها داخلة في نطاق ممتلكاته.

وعندما صمم ابن سعود على حقوقه في الخرمة معتمداً على التزام بريطانيا له إذا ما هاجمته قوات أجنبية، لم تلتزم بريطانيا بهذا التعهد، بل أكثر من ذلك حرمته بريطانيا من انتصاره، لقد أربك انتصار ابن سعود بريطانيا ووضعها في موقف حرج، فمعركة تربة وقعت في الوقت الذي بدأت فيه المفاوضات بين بريطانيا

(١) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٤٠.

والحسين لتسوية مشكلات ما بعد الحرب. وحيث إن بريطانيا كانت متورطة في وعود متضاربة – ما بين وعودها للحسين واتفاقية سايكس/بيكو ووعد بلفور – فلقد اعتقدت بريطانيا أن تأييدها للهاشميين ضد ابن سعود ربما يخرجها من ورطتها، ولذلك طلبت بريطانيا من ابن سعود أن يترك تربة والخرمة أرض خلاءٍ حتى تتم تسوية مشكلات ما بعد الحرب وكذلك مشكلات الحدود، وهددته بإلغاء اتفاقاتها معه وباتخاذ التدابير اللازمة «ضد هذه الحركة المعتدية على الحجاز»[١].

من الغريب أن بريطانيا عدَّت قوات نجد هي المعتدية على الحجاز. وهنا نسجل لبريطانيا موقفها من احتلال ابن سعود للإحساء في عام ١٩١٣م وعدم اعتراضها على ذلك على أساس أنها كانت تابعة لأجداده السعوديين. لكن في ١٩١٩م حين حاول ابن سعود الدفاع عن أراضٍ كانت أيضاً تابعة لأجداده اعترضت بريطانيا وطالبته بإخلائها. وهكذا كانت سياسة الاستعمار البريطاني وهي الكيل بموازين متعددة حسبما تكون في صالح المصالح البريطانية.

على أية حال حمل القرار البريطاني بخصوص حادثة تربة والخرمة رسالة واضحة لابن سعود بأن عدم تنفيذ إرادتها معناه حرمانه من مساعدة بريطانيا له في الاحتفاظ باستقلاله أمام أي غزو أجنبي في الوقت الذي كان خطر ابن الرشيد ما يزال مهددا لذلك الاستقلال. كما شعر أمير نجد أن أية محاولة لاستثمار نصره على الهاشميين ودخول الحجاز ضد إرادة بريطانيا سيعرضه لهجمات من وحدات الأسطول البريطاني الراسية في ذلك الوقت في جدة وينبع والعقبة، والفرق الهندية والاسترالية الموجودة في مصر وفلسطين[٢]. لذلك اضطر ابن سعود إلى الانسحاب إلى نجد، وكان المكسب الوحيد الذي حصل عليه الأمير النجدي من حادثة تربة والخرمة هو أنها أظهرت له قوة الحسين الحقيقية بدون مساعدة بريطانيا له.

لم يقف الدور البريطاني فقط عند تأجج الصراع بين ابن سعود والحسين، بل كانت السياسة البريطانية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى مسئولة عن خلق

---

(١) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، بيروت ١٩٥٤م، ص ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) انظر البحث ص١٢.

أنواع من التحالفات الغريبة بين الزعماء العرب في الجزيرة العربية ومن ثم تفاقم النزاعات والصراعات بين هذه التحالفات.

اتجهت السياسة البريطانية بعد الحرب إلى تصفية حساباتها مع القوى المحلية في الجزيرة العربية بسبب مواقفها أثناء الحرب. وكان إمام اليمن «يحيى» في نزاع مع الإدريسي صاحب منطقة عسير. ورغم عداء إمام اليمن للدولة العثمانية فإنه لم يقف إلى جانب بريطانيا ولم يعلن الحرب ضد العثمانيين، أما الإدريسي فقد أصبح حليف لبريطانيا منذ توقيع معاهدة جيزان معها في عام ١٩١٧م[١]. وفي يناير ١٩٢١م أخلى البريطانيون ميناء الحُدَيِّدَة على البحر الأحمر، وكان البريطانيون قد احتلوا هذا الميناء عند نهاية الحرب واستسلام الجيوش العثمانية في اليمن، وسمحوا للإدريسي أن يدخله ويضمه إلى ممتلكاته في عسير. ولما كانت الحُدَيِّدَة ميناء لليمن خلال فترة العثمانيين فباحتلال الإدريسي له، حرم تجارة اليمن من منفذ طبيعي لا غنى لها عنه[٢].

لم يعترض عبدالعزيز بن سعود على تنازل الإنجليز للإدريسي عن ميناء الحُدَيِّدَة، بينما عبَّر الحسين عن اعتراضه وذلك بتأييد مطالب الإمام يحيى في هذا الميناء، وأدى ذلك إلى قيام تحالف بين الحسين ويحيى ضد تحالف آخر ضم ابن سعود والإدريسي. والأغرب من ذلك هو حدوث تقارب بعد معركة تربة بين الحسين وابن الرشيد أمير حائل عدو ابن سعود، ووقع التحالف بالفعل بين الجانبين وتعهد الحسين بتزويد آل الرشيد بالمال والسلاح حتى يتمكنوا من شن حرب ضد السعوديين[٣].

وتؤكد هذه التحالفات الفارق بين نظرة الحسين وابن سعود للأوضاع في الشرق العربي بعد نهاية الحرب الأولى، فبينما فهم ابن سعود طبيعة المرحلة وترجم ذلك بأن غض الطرف عن سماح بريطانيا للإدريسي باحتلال الحُدَيِّدَة، نرى

(١) جورج أنطونيوس، المرجع السابق، ص٤٤٩.
(٢) صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصر، ص٥٣٢.
(٣) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص٧٤٨.

الحسين يؤيد إمام اليمن مخالفاً بذلك وجهة النظر البريطانية، بل وصل الأمر به إلى التحالف مع ابن الرشيد حليف العثمانيين السابق ضد ابن سعود حليف الإنجليز.

ورغم ما قد يفهم من التحالفات السابقة من غلبة المصالح الخاصة لزعماء الجزيرة العربية على المصالح القومية، فإن موقف الحسين من هذه المسألة يعد بداية لتوتر العلاقات مع بريطانيا، ثم جاء موقفه بعد ذلك من بريطانيا ومطالبته لها بالوفاء بالتزاماتها ليضرب مثلاً في التمسك بحقوق العرب في تحقيق الاستقلال والوحدة، وما يهمنا في هذا المقام هو التركيز على ما جره موقف الحسين المتشدد في المطالبة بحقوقه وحقوق العرب من تغيير في الموقف البريطاني تجاهه، الأمر الذي انعكس على الصراع العربي/العربي في جزيرة العرب في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

تعارض موقف الحسين ومطالبه مع سياسة بريطانيا الاستعمارية بعد أن وضعت الحرب الأولى أوزارها، فقد ركز الحسين جهوده بعد الحرب للدفاع عن القضية العربية ورفض التوقيع على معاهدتي فرساي وسان ريمو (١٩١٩-١٩٢١م)[١]، واتهم البريطانيون علانية بنكث الوعود التي قطعوها على أنفسهم أثناء الحرب. وكان من الطبيعي أن يتغير جو الود الذي ساد بين الحسين وبريطانيا خلال الحرب، ورأت الأخيرة أن لا سبيل إلى الخروج من هذا الموقف إلا بالخلاص من مسببه الحسين بن علي.

لقد اعتقدت بريطانيا أن وقوفها إلى جانب الحسين بعد حادثة تربة وإجبار ابن سعود على إخلاء المنطقة سيجعله يلين في موقفه، لكن عناده في مسألة حقوق العرب جعل رد الفعل البريطاني قوياً وحاسماً. على أية حال كان أول رد فعل بريطاني لعناد الحسين يحمل معنى واضحاً وهو إضعاف قوة الحسين من الناحية العسكرية وتشجيع السعوديين على مهاجمة الحجاز، واختارت بريطانيا الوقت المناسب لهذا الرد. ففي عام ١٩٢٠م - وبعد عام واحد من هزيمة الحسين العسكرية في «تربة» أمام قوات ابن سعود، وفي الوقت الذي دخل فيه الفرنسيون سوريا، أوقفت بريطانيا معونتها المادية للحسين[٢]. وكان الهدف واضحاً من هذا الرد وهو تمهيد الأجواء للتخلص من المعارضة الوطنية للحسين وتحقيق سياسة بريطانيا المرسومة.

---

(١) جلال يحيى، المرجع السابق، ص ص٤١-٤٤.

(٢) جورج أنطونيوس، المرجع السابق، ص ص٤٤٦-٤٤٧.

وبقرار قطع الإعانات عن الحسين أضعفته بريطانيا عسكريا. وبعدم تحقيق بريطانيا وعودها للحسين وتصميمها على سياستها الاستعمارية التي وضحت بصورة جلية بدخول القوات الفرنسية إلى سوريا، وعدم قدرة الحسين على عمل أي شيء حيال ذلك أضعفته بريطانيا سياسيا. وقد عبر أنطونيوس أيضاً عن موقف الحسين الشائك الذي وضعه فيه عناده في المطالبة بحقوق العرب من بريطانيا أصدق تعبير بقوله:

«وكان حسين يضطلع أيضاً بمسئوليات الإفصاح عن حقوق العرب وأمانيهم، وذلك شيء سبب له حيرة وارتباكاً، فقد كان من نصيبه أن يلح على إنجاز العهود التي قطعها الحلفاء، وكلما اتضح أن بريطانيا وفرنسا تجنحان إلى تفسير وعودهما تفسيرات مشينة ازداد حرج موقفه بين بني قومه العرب من جهة وحلفائه الإنجليز من جهة أخرى. ووجد نفسه مرغماً على السير في طريق محفوفة بالبغضاء مفضية إلى غير شيء، حين ظل يتعقب البريطانيين للوفاء بما كان يعتقده ديناً له، دون أن يكون لديه من مصادر القوة التي لا غنى عنها لمن شاء النجاح في السياسة، وكانت القوة الوحيدة لدى حسين هي القوة المعنوية الكامنة في عدالة قضيته، إلا أن تلك القوة في ذاتها لم تكن لتستطيع السيطرة على جو فرساي أو سان ريمو، ومما زاد أيضاً في حيرته عرفانه أن مصادره الحربية أدنى من مصادر ابن سعود، وأن عليه أن يتكل على بريطانيا لتمده بالمساعدة إن استدعت الأمور استعراض «القوة بين الحجاز ونجد»[(١)].

ويفهم من كلام جورج أنطونيوس أن قطع المعونة البريطانية عن الحسين معناه زيادة ضعفه عسكريا وإيجاد بوناً شاسعاً بين القوة النجدية والقوة الحجازية. ويشهد للحسين أنه أخذ جانب المطالب والحقوق العربية، فلم يأبه لقطع المعونة الإنجليزية، ولم يستجب لمحاولات بريطانية أخرى للتحالف معه بعد الحرب، لإحساسه أن موافقته على شروط التحالف معناها أن يضعه العرب في وضع العميل للاستعمار، ففي عام ١٩٢١م أرسلت بريطانيا الكولونيل لورانس إلى الحجاز لإقناع الحسين بالتحالف معها معتمدة على مكانة هذا الضابط الإنجليزي

(١) حافظ وهبه، جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة ١٩٥٦، ص ص ٤٠٤-٤٠٥.

عند الشريف وعند أبنائه، وكانت بريطانيا تريد من الحسين – عن طريق لورانس – اعتراف بالانتداب الأوربي (الفرنسي – الإنجليزي) على سوريا وفلسطين والعراق، ذلك الانتداب الذي أقره مؤتمر سان ريمو. وتعهدت بريطانيا في المقابل بحماية الحسين من كل هجوم قد يشن عليه من الحجاز، وكذلك تعهدت باستخدام نفوذها لتسوية مشكلات الحدود المعلقة بين نجد والحجاز، ورفض حسين هذا المشروع واستمرت المفاوضات حتى عام ١٩٢٤م ولم يحصل الإنجليز من الحسين على أية تنازلات[١]، وكانت معارضة الحسين للخطط البريطانية منذ معاهدة فرساي – التي لو وافق عليها لكانت موافقة على إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين – من أهم الاسباب التي باعدت بين بريطانيا والحسين.

واتخذ الحسين بن علي خلال العامين ١٩٢٣م، ١٩٢٤م إجراءين حاسمين، أديا في النهاية إلى استئناف الصراع النجدي / الحجازي مرة أخرى، وكان ابن سعود قد ركز جهوده بعد الموقف البريطاني من حادثة تربة نحو إمارة شمّر، واستطاع بقوة اتباعه الإخوان من دخول مدينة حائل عاصمة آل الرشيد وضمها لإمارته نجد في عام ١٩٢١م[٢]، وجاءت إجراءات الحسين في وقت ارتفاع الروح المعنوية لابن سعود وقواته، وفي وقت كان ابن سعود على علم تام بقوة الحسين العسكرية وخاصة بعد قطع المعونات البريطانية عنه.

أما الإجراء الأول فكان متعلقاً بمسألة الحجاج القادمين إلى الحجاز من منطقة نجد، عندما اشترط الحسين أن تبلغه حكومة نجد رسميا بعدد الحجاج النجديين، وأن يكون وصولهم إلى الحجاز عن طريق البحر حيث عدَّ قدومهم براً معناه توغلهم في منطقة الحدود النجدية الحجازية، وكان الإجراء الثاني أكثر خطورة عندما أعلن الحسين نفسه في عام ١٩٢٤ خليفة المسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية على يد الكماليين بنفي عبدالمجيد الثاني آخر سلاطين بني عثمان.

وحاولت بريطانيا من جانبها التوسط بين القوتين العربيتين لحل مشاكل الحدود بين الممالك الهاشمية في العراق والأردن والحجاز وبين إمارة نجد بهدف

---

(١) صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصر، ص٥٣٢.

(٢) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٤٧.

الحفاظ على المصالح البريطانية الأمبراطورية في الشرق العربي، ودعت بريطانيا إلى مؤتمر عقد في الكويت في ديسمبر ١٩٢٣م واستمر حتى يناير ١٩٢٤م. إلا أن الحسين لم يحضر المؤتمر ولم يرسل مندوباً عنه، وتسبب ذلك في فشل المؤتمر الذي كان معناه فشل السياسة البريطانية في الحصول على اعتراف يدعم الأمر الواقع كما رآه الإنجليز، وجاء إعلان الحسين نفسه خليفة المسلمين وما تبعه من دعاية هاشمية – بإعلان الحسين في عمان أثناء استقباله المهنئين أنه سيعمل من أجل وحدة البلاد العربية وتحقيق استقلالها التام تحت قيادته، كل ذلك زاد من غضب الإنجليز لما يحمله من معانٍ عدة، أهمها إسقاط الامتيازات التي يتمتعون بها في العراق والأردن وفلسطين التي وقعت بمقتضى معاهدة سان ريمو تحت الانتداب البريطاني[١].

كان من الطبيعي أن تؤدي إجراءات الحسين إلى زيادة التوتر في علاقاته مع بريطانيا، كما كانت فرصة لابن سعود هذه المرة ليس فقط للتعبير عن مراراته ضد الحسين، ولكن للتخلص من تلك المرارة نهائياً معتمداً على الموقف البريطاني العدائي للحسين، ورغم إدراك ابن سعود لهذا الموقف البريطاني فإنه رأى أن يخفي أهدافه وراء الدين حتى يقطع الطريق تماماً أمام بريطانيا إذا ما فكرت في التدخل بحجة إقرار الأمر الواقع، وذلك بجعل صراعه مع الحسين إسلامياً وحول فريضة إسلامية وهي فريضة الحج.

وفي أعقاب فشل مؤتمر الكويت جمع ابن سعود مؤتمراً من زعماء الإخوان* ورؤساء العشائر في مدينة الرياض لبحث مطالب الشريف حسين بشأن الحجاج النجديين، ومن العجيب اتهام الإخوان الشريف حسين في هذا المؤتمر بعمالته للإنجليز[٢]، كذلك اتهموه بأنه بمنعه المسلمين من الحج فإنه يمنعهم من القيام بفرائض دينهم. وفي نهاية المؤتمر قرر المؤتمرون الزحف على الحجاز لأداء الحج،

---

* الإخوان: القوات الوهابية التي اعتمد عليها عبدالعزيز بن سعود في توسعاته بجزيرة العرب وقد قامت بهذه المهمة بإستبسال وحماس منقطع النظير. ثم عمل عبدالعزيز بعد ذلك على استيطانهم في مواقعهم وإدخال نظم الاستقرار في حياتهم بعد أن كانوا أفراداً غير نظاميين.

(١) نفس المرجع، ص٥٦.

(٢) نفسه، ص٥٢.

الأمر الذي كان معناه الزحف العام على الحجاز. ومن أهم الدلائل على ذلك ما قام به عبدالعزيز بن سعود من تدعيم زحف الحجيج بقوة عسكرية بلغت ستة عشر لواء[١].

احتلت القوات النجدية مدينة الطائف في ٧ سبتمبر ١٩٢٤م بعد حرب قصيرة فشلت خلالها القوات الحجازية في الدفاع عنها، ووقعت في الطائف مذبحة عامة راح ضحيتها الآلاف من سكان المدينة، كما تعرضت الممتلكات والديار للنهب والسلب من قبل الإخوان الوهابيين الذين عَدُّوا أهل الطائف مشركين، لكن الحقيقة يرويها حافظ وهبة بأن رغبة الإخوان في الحصول على الغنائم كان هو الدافع وراء هذه الأعمال الوحشية وغير الإنسانية التي ارتكبها أتباع عبدالعزيز بن سعود باسم الدين[٢].

على أية حال كان دخول الإخوان مدينة الطائف بداية لحكم السعوديين للحجاز ونهاية حكم الأشراف فيها، فقد توالت الأحداث مسرعة من تنازل الحسين عن حكم الحجاز لابنه علي في أكتوبر عام ١٩٢٤م، ثم دخول قوات عبدالعزيز مدينة مكة وانتقال الملك الجديد إلى جدة. ورفض ابن سعود محاولات التوسط من بعض الوفود الإسلامية لوقف الحرب ما دام أي فرد من أبناء الشريف حسين مقيماً في الحجاز، ثم حاصر عبدالعزيز قوات علي بن الحسين في جدة واستولى عليها، وحاصر فلول الهاشميين في المدينة المنورة التي دخلها في ديسمبر ١٩٢٥م، وأعلن ابن سعود نفسه ملكاً على نجد والحجاز وملحقاتهما في ٨ يناير ١٩٢٦م قاطعاً بذلك الطريق على الأصوات الإسلامية التي نادت خلال هذه الفترة بإقامة حكومة جماعية إسلامية في الأماكن المقدسة[٣].

ومن الغريب أن بعض الآراء التي تناولت أحداث هذه الفترة بين الحسين وابن سعود نظرت إلى قضاء أمير نجد على الحسين على أنه كان قضاء على تلك القيادة العربية التي استندت على دول الغرب الاستعمارية وسمحت لهم بطريق غير مباشر

---

(١) حافظ وهبة، المرجع السابق، ص٤٠٧.

(٢) محمد مرسي عبدالله، المرجع السابق، ص٢٤٢، صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصر، ص ص٥٣٤-٥٣٥.

(٣) H.R. Dickson, Op. Cit. pp. 284-285.

بدخولهم إلى البلاد العربية، لكننا نقرر أن قضاء ابن سعود على الحسين قد أنهى المعارضة التي تزعمها الحسين ضد بريطانيا، وأطماعها في العالم العربي، وطوى هذه الصفحة التي طالب فيها العرب بريطانيا بتحقيق وعودها التي قطعتها على نفسها أثناء الحرب العالمية الأولى، ولما لم تكن بريطانيا قد قطعت العهود إلى للحسين بن علي – ومع إيماننا بعدم قدرة الحسين بمفدره على إجبار بريطانيا على تنفيذ هذه الوعود – فإن ابن سعود بقضائه على الحسين قد ساعد بريطانيا في عزل هذا الشخص الذي سبب المشاكل لبريطانيا، وكان استمرار وجوده يشكل عائقاً أمام سياسة بريطانيا الاستعمارية.

فما موقف بريطانيا من الأحداث المسرعة التي أنهت الحسين وحكم الأشراف في الحجاز، وفتحت الطريق أمام ابن سعود ليكون سيد الجزيرة العربية...؟

لقد وقفت بريطانيا هذه المرة موقف المتفرج من الصراع الذي دار بين حليفيها الحسين وابن سعود رغم علمها بتفوق ابن سعود من حيث العدد والعدة، ومنذ دخول قوات ابن سعود مدينة الطائف لم تحرك بريطانيا ساكنا إلا فيما يهدد مصالحها من جراء هذا الصراع. ففي خريف عام ١٩٢٥م وفي الوقت الذي حاصرت فيه القوات النجدية المدينة المنورة ومدينة جدة، تقدم الإخوان جهة الشمال بغرض قطع الاتصال بين إمارة شرقي الأردن ومملكة الحجاز. لذلك سارعت بريطانيا بإرسال أحد مبعوثيها وهو السير جلبرت كلايتون Sir G. Klayton لتحذير عبدالعزيز بن سعود من إلحاق أي ضرر بخط أنابيب البترول المقترح إنشاؤه عبر الصحراء من العراق إلى البحر المتوسط، كما حذرته من أي ضرر قد تلحقه قواته من الإخوان بطريق السيارات الجديد بين بغداد ودمشق، وكذلك بمنشآت خط الطيران الأمبراطوري البريطاني قرب بغداد، وفي أوائل نوفمبر من نفس العام عقد كلايتون معاهدة مع ابن سعود بغرض وضع حد للنزاع على الحدود بين ممتلكات السعوديين من ناحية ومملكة العراق وإمارة شرقي الأردن من ناحية أخرى[١].

(١) جلال يحيى، المرجع السابق، ص٦٤.

والمناسبة الثانية التي تدخلت فيها بريطانيا كانت في شهر يونيو عام ١٩٢٥م خلال فترة إنهاء حكم الهاشميين من الحجاز عندما سحبت الشريف حسين من مدينة العقبة التي لجأ إليها بعد تنازله عن الحكم لابنه علي، ولا شك أن بريطانيا اتخذت هذا الإجراء لخوفها من أن يعطي وجود الحسين في هذا الميناء المهم ذريعة لعبدالعزيز بن سعود بالهجوم عليها واحتلالها[١]، ووضع بريطانيا أمام أمر واقع جديد يتعارض مع خططها الاستعمارية. لذلك نراها بعد ذلك تضم العقبة لإمارة شرق الأردن الذي وضعته تحت الانتداب البريطاني.

ومن المفيد هنا الإشارة إلى أن ابن سعود حتى بعد دخوله الحجاز وإعلان نفسه ملكاً عليها ظل على سياسته الرامية إلى عدم الصدام مع بريطانيا ومبتعداً عن أي موقف من شأنه أن يوتر علاقاته مع البريطانيين مؤدياً بذلك خدمات لبريطانيا وسياستها في الشرق العربي، ومن أهم المواقف التي اتخذها ابن سعود في هذا الصدد موقفه الذي اتخذه أثناء انعقاد المؤتمر الإسلامي الذي عقد في مكة عام ١٩٢٦م، فعندما طرح أعضاء المؤتمر مشروع قرار يدعو إلى تطهير الجزيرة العربية من الحكم الأجنبي على أن يشمل هذا القرار فلسطين وسوريا والعراق وسواحل الجزيرة العربية، احتج ابن سعود على هذا القرار، ويعلق صلاح العقاد على ذلك بقوله: «لا غرو فقد رأى (ابن سعود) الشريف حسين يسقط منذ قليل نتيجة عدائه للإنجليز وهو لا يريد أن يصطدم بهم»[٢].

وحق لابن سعود أن يحصل على مكافأة بريطانية لمواقفه السابقة التي خدمت مصالح بريطانيا في الشرق العربي مثل انصياعه لأوامر بريطانيا في حادثة تربة والخرمة وأخيراً باعتراضه ورفضه لمشروع القرار الإسلامي العربي بطرد المستعمر من الجزيرة العربية مروراً بأهم خدمة وهي القضاء على الشريف حسين بن علي الذي كان يمثل عقبة كئود أمام الخطط الاستعمارية في المنطقة. وفي مايو عام ١٩٢٧م، وبعد أن أعلن ابن سعود نفس ملكاً على الحجاز ونجد وملحقاتهما عقدت

---

(١) صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصرة، ص٥٣٧.

(٢) J. Hurwitz, Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. 1, ‘‘a dacumentry record’’ Princeton 1956, pp. 88-90.

بريطانيا معاهدة معه في جدة اعترف البريطانيون فيها باستقلال عبدالعزيز بن سعود الكامل وسيادته التامة على الحجاز ونجد وملحقاتهما، كذلك تقرر في هذه المعاهدة أن تكون اتصالات عبدالعزيز مباشرة مع وزارة الخارجية في لندن وقنصليتها في جدة[١]، وانقطعت منذ ذلك التاريخ علاقات ابن سعود بحكومة الهند البريطانية.

٥ – الخاتمة:

تعلم ابن سعود درساً أثناء إقامته مع أبيه في الكويت، ظل منهاجاً له لفترة طويلة من حياته. وهذا الدرس هو أن التقارب من بريطانيا والتحالف معها وعدم مخالفة سياستها هو السبيل الوحيد لتحقيق أحلامه وطموحاته في إحياء مجد السعوديين في جزيرة العرب. وسعى ابن سعود لهذا التحالف وعرض تعاونه مع البريطانيين منذ دخوله الرياض حتى عام ١٩١٥م عندما عقدت معه معاهدة دارين التي خدمت ابن سعود في ناحية بينما خدمت مصالح البريطانيين في أكثر من ناحية.

أما الشريف حسين بن علي فقد كانت بريطانيا – بسبب مكانته في الأماكن المقدسة الإسلامية وأيضاً بسبب اشتراك العثمانيين في الحرب بعد إعلان الجهاد ضد دول الحلفاء – في حاجة إلى تحالف معه. وبدأت المفاوضات بين الحسين وبريطانيا في ١٩١٥م وانتهت بقيام ثورة العرب ضد الأتراك في ١٩١٦م، ونظراً لحاجة بريطانيا الملحة لخدمات شريف مكة فقد حصل الأخير على امتيازات أفضل مما حصل عليها ابن سعود مما شكل الحلقة الأولى للنزاع والصراع بين هذين الزعيمين العربيين.

ولقد شكلت سياسة بريطانيا الاستعمارية من جهة، وطموحات ابن سعود لاسترداد ملك أسرته من جهة ثانية ومواقف الحسين القومية والعربية من جهة ثالثة العوامل الرئيسية لتطور الصراع العربي داخل شبه الجزيرة العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. فبعد أن وضعت الحرب أوزارها ظهر واضحاً الفرق بين أهم حليفين لبريطانيا في جزيرة العرب فيما يتعلق بالآمال والطموحات وتأثير ذلك على أطماع بريطانيا في المشرق العربي. فآمال الحسين في وحدة عربية تضم سوريا والعراق وفلسطين والحجاز تعارضت مع سياسة بريطانيا وحلفائها وأطماعهم في

الأراضي العربية، بينما كانت آمال ابن سعود في إحياء ملك السعوديين إذا ما اقتصرت على الجزيرة العربية فلن تؤثر على أطماع الحلفاء.

وبذلت بريطانيا جهوداً كي يلين جانب الحسين ويتنازل عن عناده، فأجبرت ابن سعود على أن يتخلى عن خرمة وتربة. وحاولت عقد تحالف جديد معه في عام ١٩٢١م مانحة إياه امتيازات كثيرة، في مقابل أن يعترف بالانتداب البريطاني على العراق وفلسطين. ولو قبل الحسين هذه المعاهدة – ولو وقع على معاهدة فرساي وسان ريمو – لحصل على مساعدة بريطانية ضد جيرانه وخاصة ابن سعود، إذ إن المعاهدة تضمنت تعهداً بريطانياً بحماية الحجاز ضد أي اعتداء خارجي، واستخدام بريطانيا لنفوذها لتسوية مشكلات الحدود المعلقة بين نجد والحجاز.

ورفض الحسين العرض البريطاني في أن يكون عميلاً للمستعمر، وتمسك بحقوقه وحقوق العرب رغم ضعفه عسكريا. ولم يكن لدى بريطانيا الرغبة في استخدام القوة ضد الحسين بعد فشل سياسة التحالف معه، ووجدت بريطانيا أن خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هو إحداث تغيير في سياستها تجاه حليفيها بالجزيرة العربية. وعن طريق هذا التغيير، وعلى طريقة التحكم عن بعد، أوصلت بريطانيا الرسالة إلى ابن سعود الذي كان جاهزاً – بسبب حقده السابق على مركز الحسين لدى بريطانيا وخوفه مما قام به الحسين أثناء الحرب وبعدها من إعلان نفسه ملكاً على العرب وخليفة المسلمين – للقيام بمهمة، خدمت أهدافه في جهة، وخدمت أطماع المستعمر في مائة جهة.

لقد كان من حسن حظ ابن سعود استمرار الحسين في عناده وما نتج عن ذلك من توتر الأجواء بينه وبين بريطانيا. وكان الاختبار الثاني حاسماً وناجحاً وأوصله إلى أهدافه حيث لم تتحرك بريطانيا لصالح حليفها الرئيسي، وتركته يدفع ثمن عناده معها على يد حليف آخر لها استخدمته كمعول لهدم، وإنهاء فكرة ضحى العرب من أجلها تضحيات عظيمة. وهكذا قضى ابن سعود وأنهى أهم فترة من تاريخ العرب القومي.

ولعل مواقف ابن سعود بعد قضائه على الحسين يعد دليلاً على التقاء المصالح البريطانية مع أهداف ابن سعود. ونذكر من ذلك اعتراضه على قرار المؤتمر الإسلامي العربي بمكة في ١٩٢٦م بطرد المستعمر الأجنبي من البلاد العربية.

وامتنع ابن سعود عن تهديد مصالح بريطانيا في مناطق انتدابها في شرقي الأردن والعراق – وسكتت بريطانيا بدورها على توسعات ابن سعود في جنوب غرب الجزيرة العربية مضحية بحليف سابق لكليهما وهو الإدريسي في عسير الذي لم تتدخل بريطانيا لصالحه رغم ما نصت عليه معاهدته معها بحمايته وأراضيه ضد أية اعتداءات أجنبية.

وهكذا كان الفارق بين الحسين وابن سعود هو الفارق بين رجل أبى أن يبيع قضية العرب القومية – رغم ضعف إمكاناته – بحماية ملكه رغم إغراءات بريطانيا له، ورجل كان حريصاً على ملكه.

المصادر والمراجع

أولاً – وثائق غير منشورة:

India Office Records **سجلات مكتب الهند:**

(1) IOR, L/P & S/18, B 437, Historical Memorandum on Ibn Saud.
(2) IOR, L/P & S/20, C. 238, Perisan Gulf Gazetter; Political and Historical Materials, Precis of Turkish Expansion on the Littoral and Hasa and Katif affairs.
(3) IOR, 15/5/XXV/I, Memorandum of an Interview with Ibn Saud., Dec. 1913.
(4) IOR, 15/5/XXV/4. Arabian Politices.

ثانياً – وثائق منشورة:

(1) Aitchison, C.U., A Collection of Treaties, Engagements and Sands Relating to India and Neighbouring Countries, Callcutta. 1822.
(2) Hurwitz, J., Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I "A Documentary Record", Princetron, 1956.

ثالثاً – المراجع العربية:

١ – إبراهيم، عبدالعزيز عبدالغني: حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي، الطبعة الأولى، الرياض ١٩٨١م.
٢ – أنطونيوس، جورج: يقظة العرب «تاريخ حركة العرب القومية»، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، الطبعة الثامنة، بيروت ١٩٨٧م.
٣ – حمزة، فؤاد: قلب جزيرة العرب، مكة ١٣٥٢هـ.
٤ – الرشيد، عبدالعزيز: تاريخ الكويت، جـ٢، بغداد ١٩٣٦م.
٥ – الريحاني، أمين: تاريخ نجد الحديث، بيروت ١٩٥٤م.
٦ – شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي، المجلد السابع، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٩٢م.
٧ – عبدالله، محمد مرسي: دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١م.

٨ - العقاد، صلاح: التيارات السياسية في الخليج العربي «من بداية العصور الحديثة حتى أزمة ١٩٩٠-١٩٩١م»، القاهرة ١٩٩٢م.
٩ - العقاد، صلاح: المشرق العربي المعاصر، القاهرة ١٩٩٣م.
١٠ - عمر، عمر عبدالعزيز: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٧٩٨م، الإسكندرية ١٩٩٤م.
١١ - قاسم، جمال زكريا: الخليج العربي «دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول»، القاهرة ١٩٨٥م.
١٢ - قاسم، جمال زكريا: الخليج العربي الحديث والمعاصر «الأوضاع الداخلية في إمارات الخليج العربية وعلاقات الجوار (فترة الحربين العالميتين وما بينهما) ١٩١٤-١٩٤٥م، القاهرة ١٩٨٥م.
١٣ - قدورة، زاهية: تاريخ العرب الحديث، بيروت ١٩٨٥م.
١٤ - المختار، صلاح الدين: تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ج٢، بيروت ١٩٥٧م.
١٥ - وهبة، حافظ: جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة ١٩٥٦م.
١٦ - يحيى، طه، جلال، جاد: تاريخ العرب الحديث، الإسكندرية ١٩٧٤م.
١٧ - يحيى، جلال: العالم العربي الحديث والمعاصر (المدخل)، الإسكندرية ١٩٨٨م.
١٨ - يحيى، جلال: العالم العربي الحديث والمعاصر (فترة ما بين الحربين العالميتين)، الإسكندرية ١٩٩٨م.

رابعاً - المراجع الأجنبية:

(1) Armstrong, H.C., Lord of Arabia ''Ibn Saud'', an intimate study of a king, Beirut 1966.
(2) Bondaruaky, G., Hegemonists and Imperialists in the Perisan Gulf, Moscow 1966.
(3) Dickson, H.R., Kuwait and her Neighbors, London 1956.
(4) Grave, Philip, The Life of Sir Percy Cox, London 1951.
(5) Hardinge, Lord, My Indian Years ''the reminiscences of Lord. Hardinge of Penshurst, London 1945.

(6) Kelly, J.B., Britain and the Persain Gulf 1795-1880, Oxford 1968.
(7) Philipy J., Arabia, London 1950.
(8) Troeller, G., The Birth of Saudi Arabia "Britain and the rise of house of Saud", London 1976.
(9) Winder, R.B., Saudi Arabia in the Nineteenth Century, New-York, 1956.